مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيم

« ٩ »

التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالقُرْآنُ

فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَان

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم

للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعــد:

فما كنت أحسب حين بدأت موضوعات هذه السلسلة المباركة أن يصل عددها إلى التاسع والعاشر، وإنني لأستشعر فضل الله تعالى علـيَّ وأنا أكتب هذه المقدمة للكتاب التاسع فيها، وهو (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران)، وهو في الحقيقة يتحدث عن المواجهة المستمرة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وقد سألني بعضهم: لماذا لا تلتزم في هذه السلسلة الكتابة في موضوعات سور القرآن حسب ترتيبها في المصحف؟.

وأقول لهذا السائل ولغيره: هذا أمر أكبر من إمكاناتي الضعيفة المحدودة، فالوقوف على الموضوع الأساسي لكل سورة في القرآن الكريم ليس بالأمر السهل الميسور، نظراً لبلاغة كلام الله تعالى، وعمق معانيه، ودقتها، ورفعتها، وإحاطتها، وتجددها، ولا يجوز لي أن أفرض موضوعاً على آيات سورة، إلا إذا تكونت لديَّ القناعة الكاملة أنه هو حقاً الموضوع الأساسي الذي تدور في محوره آيات السورة، وشرح الله تعالى صدري لذلك.

ولهذا لم ألزم نفسي بترتيب المصحف، لأن معناه التـزام بالكتـابة عن موضوعات كل سور القرآن الكريم، وهو ما لا أطيقه. حسبي أنني أستنزف بقية بصري وقوتي في خدمة كتاب الله تعالى، ببعض ما يفتح الله تعالى عليّ من

موضوعات سور القرآن الكريم، ورجائي منه سبحانه أن يتقبله مني، ويعفو عن تقصيري، فهو سبحانه أعلم بضعفي وعجزي.

وهذا السبب أيضاً هو الذي جعلني أتردد وأتهيب في تناول موضوعات طوال السور التي في أول المصحف، فليس من السهل تتبع موضوع واحد من خلال سورة كسورة آل عمران مثلاً، تصل آياتها إلى المائتين، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى، وتحميل آياته وكلماته معاني لا تحتملها، أو صرفها عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى بعيدة عنها، أمرٌ خطير ومسؤولية جسيمة، وجراءة على الله تعالى.

وأخيراً أقدمت على موضوع سورة آل عمران بعد طول تردد وتهيب، بعد أن شرح الله تعالى صدري له، لما له من صلة كبرى بحاضر الأمة المسلمة ومستقبلها، وبماضيها أيضاً، فمواجهة المسلمين للصليبية الحاقدة، واليهودية الماكرة، أعظم قضايا العصر، والمسلمون بأشد الحاجة إلى نور القرآن وهدايته فيها، ولا فلاح لهم إلا إذا التزموا في مواجهتهم لأعدائهم منهج القرآن المنزل على نبيهم عليه الصلاة والسلام.

أسأله سبحانه أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور بصائرنا وذهاب همومنا، وجلاء أحزاننا، وأن يرزقنا حسن تلاوته، وتدبر آياته، والعمل بما فيه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

الفقير إلى الله تعالى

عبد الحميد محمود طهماز

مكة المكرمة في ١/ ١١/ ١٤٠٨ هـ

سَبَب نزول السُّورة

وفـد نجـران

أجمع علماء التفسير والسيرة النبوية الشريفة على أن صدر سورة آل عمران نزل بسبب قدوم وفد نصارى نجران[1] على النبي ﷺ في المدينة المنورة، وأن قلْب السورة نزل بمناسبة غزوة أحد.

وذكر ابن هشام في السيرة أمر قدومهم، ولكنه لم يذكر تاريخه، فقد ذكره في سياق مواقف اليهود والنصارى والمنافقين من النبي ﷺ بعد الهجرة، التي ذكرها مجملة قبل أن يشرع في سرد الأحداث التي جرت بعد الهجرة، فقال: قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم:

العاقب: أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح.

والسيد: لهم ثمالهم - مرجعهم - وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم.

وأبو حارثة بن علقمة، أحد بني بكر بن وائل، أسقفهم وحبرهم وإمامهم، وصاحب مِدْراسهم[2].

---

(١) وادٍ يقع في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية على حدود اليمن الشمالي، اشتهر بسبب موقعه وكثرة مياهه وخصبه، ومركزه بلدة نجران التاريخية القديمة.

(٢) المدرسة للعلوم الدينية.

وكان أبو حارثة قد شَرُف فيهم، ودرس كتبهم، حتى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرَّفوه وموّلوه وأخدموه، وبنَوا له الكنائس، وبسطوا له الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

قال ابن هشام: وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم، فكلما مات رئيس منهم فأفضت الرياسة إلى غيره، ختم على تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التي كانت قبله ولم يكسرها، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي، فعثر، فقال له ابنه: تعس الأبعد، يريد النبي ﷺ، فقال له أبوه: لا تفعل فإنه نبي، واسمه في الوضائع، يعني الكتب. فلما مات لم تكن لابنه همة إلا أن شدَّ فكسر الخواتم، فوجد فيها ذكر النبي ﷺ، فأسلم فحسن إسلامه وحج وهو الذي يقول:

إليك تعدو قلقاً وضينها[١] معترضاً في بطنها جنينها

مخالفاً دينَ النصارى دينُها

* * *

وذكر ابن هشام رواية أخرى تدل على أن الحادثة حدثت مع أخيه كرز بن علقمة، وأنه قال لأخيه عندما سأله عن سبب عدم إسلامه: ما صنع بنا هؤلاء القوم - الروم - شرَّفونا وموَّلونا وأكرمونا، وقد أبَوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كلَّ ما ترى، فأسلم كرز بعد ذلك، وحدَّث عنه هذا الحديث.

ولما قدموا على رسول الله ﷺ، فدخلوا عليه مسجده حين صلَّى العصر، عليهم ثياب الحبرات[٢]، وجُبب وأردية[٣]، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، فقال بعض الصحابة: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في

(١) الوضين: حزام الناقة.

(٢) من ثياب اليمن.

(٣) جمع جُبة ورداء.

مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم، فصلوا إلى المشرق»(١).

تاريخ قدومهم

وإغفال ابن هشام ذكر تاريخ قدومهم جعل بعض المُحْدَثين من المفسرين يرى احتمال قدوم الوفد في وقت مبكر جداً من العهد المدني، فقال: فرغم ما يبدو لأول وهلة من عدم احتمال ذلك، أستناداً إلى ما هو معروف من ظروف السيرة النبوية، ومن كون النبي ﷺ إنما أرسل رسله وكتبه إلى أطراف الجزيرة وخارجها في السنة السادسة من الهجرة، إلا إذا كان خبر انتصار النبي ﷺ على قريش في بدر، قد أدهش الناس، وجعل رؤساء نصارى نجران يفدون على النبي ﷺ لاستطلاع النبأ، فإذا صح هذا، وصح معه أن هذا الوفد قد قدم إلى المدينة قبل وقعة أحد، فيكون وضع السورة في الترتيب بسبب ذلك.

وإذا صح خبر شهادة أبي سفيان على العهد الذي كتبه النبي لنصارى نجران بعد نحو سنة من الفتح المكي، فيكون ذلك حادثاً ثانياً. وقد ذكرت الروايات أن السنة التاسعة للهجرة كانت سنة قدوم الوفود من كافة أطراف الجزيرة... ومن المحتمل أن يكون وفد عليه فيمن وفد جماعة من نصارى نجران، فكتب لهم النبي ﷺ العهد المروي(٢).

وكل هذا التكلف الذي لجأ إليه صاحب التفسير الحديث لأنه بنى تفسيره على أسباب النزول، ولهذا يريد أن يكون قدوم وفد نجران قريباً من غزوة أحد التي أنزل الله فيها ما يقارب من ستين آية من آيات سورة آل عمران.

ولا حاجة لكل هذا التكلف، فليس من الضروري أن يكون ترتيب الآيات في السورة تابعاً لترتيب نزولها أو لأسبابه، فكثيراً ما نرى آيات متقدمة في الذكر ومتأخرة

---

(١) عن سيرة ابن هشام، بتصرف واختصار.
(٢) انظر التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة ٨/٧١.

في النزول، فترتيب الآيات في السور مستقل عن ترتيب نزولها، ولا مانع أن يكون صدر سورة آل عمران الذي نزل بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران في العام التاسع من الهجرة متأخراً في النزول عما في قلبها من آيات نزلت في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة.

المهم وحدة موضوع آيات السورة، والاتساق والاحتباك فيما بينها، رغم اختلاف أوقات نزول الآيات، وتعدد أسبابه. وهذا في الحقيقة، وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وإن هذه السلسلة المباركة، لتستهدف إظهار هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني بشكل عملي وموضوعي.

والجدير بالذكر أن ابن كثير رحمه الله قد أكد أن قدوم وفد نجران كان في سنة تسع، فقال: والفرض أن وفودهم كان في سنة تسع، لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدّى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما نزلت بعد الفتح[1].

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٨٩.

الفَصَل الأوَّل

القُرآن وَالإسلام

مَوضُوع سُورَة آلِ عِمرَان

برز موضوع السورة في أول آياتها، في قوله تعالى: ﴿ أَلَمّ [١] الله لا إلَه إلا هو الحيُّ القيوم [٢] نزَّل عليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل [٣] من قَبْلُ هُدًى للناس، وأنزل الفرقانَ، إن الذين كفروا بآياتِ الله لهم عذابٌ شديدٌ، والله عزيز ذو انتقام [٤] ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمّ ﴾ من الحروف المقطعة، ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في معانيها، وكثرة الأقوال تدل على حقيقة هامة، هي أن الإنسان مهما تدبر كلمات الله في القرآن الكريم، فلن يقف على كل معانيها، ولن يحيط بأسرارها، ولهذا ذهب أكثر علماء التفسير إلى القول بأن معاني هذه الحروف مما استأثر الله تعالى بها، فهي من الآيات المتشابهة، التي سيأتي الحديث عنها.

وأما الذين فسروها، فذهب أكثرهم إلى أنها ذكرت بياناً لإعجاز القرآن، وعجز الخلق عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها.

ولقد انتصر ابن كثير رحمه الله في مقدمة تفسيره لهذا الرأي، فبعد أن ذكره وذكر القائلين به من العلماء، قال: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة مثل ﴿ أَلَمّ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾... وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر(١).

---

(١) انظر المعجزة والإعجاز في سورة النمل للمؤلف.

ولو أمعنا النظر في آيات سورة آل عمران لوجدنا ما يدل على صحة ما ذكره ابن كثير، فالقرآن الكريم أحد المحاور الرئيسية لموضوع السورة، كما سيأتي معنا.

الحـــي القيـــوم

بدأت السورة بقوله تعالى على وجه الحزم والجزم: ﴿ الله لا إلَه إلا هوَ الحيُّ القيُّوم ﴾، فهو سبحانه وحده المستحق للعبادة والطاعة لا غيره. ووقع الاسم الجليل (الله) مبتدأً، وجاء ما بعده خبراً له، و (الحي القيوم) خبر آخر، أي هو الحيُّ القيُّوم.

ومعنى (الله) المعبود، و (الحيُّ) ذو الحياة الحقيقية التي لا موت معها[١]، فحياته سبحانه صفة قائمة في ذاته المقدسة، تدل على كماله ووجوده، وهي غير مكتسبة كحياة المخلوقات، وغير مسبوقة بعدم، ولا يلحقها فناء وانتهاء، ولهذا ذهب بعضهم إلى أن معنى (الحي) الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء[٢].

فهو سبحانه الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، وهو لهذا منزه عن أن يكون له ولد، لأن الولد يكون لمن يلحقه الزوال والفناء، فيكون الولد امتداداً لوجوده بعد موته وفنائه، والله سبحانه يتنزه عن ذلك، فهو (الحي) أزلاً وأبداً.

ومعنى (القيُّوم) القائم بذاته، فلا يحتاج جل وعلا إلى أحد، والمقيم لغيره، فكل ما سواه قائم به، يستمد وجوده وقيامه منه سبحانه، فجميع المخلوقات مفتقرة إلى الله جل جلاله، وهو غني عنها، ولا قيام لها ولا وجود بدون أمره ومشيئته، فهو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية[٣]، وهذا أيضاً ينفي أن يكون له جل جلاله شريك، أو صاحبة، أو ولد ، لأنه القيوم بنفسه والقائم على كل نفس سواه، تقدست ذاته، وتباركت أسماؤه، وتسامت صفاته.

---

(١) نظم الدرر ٤/٢٠٥.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/٢.
(٣) مختصر ابن كثير ١/٢٣٠.

وقد وردت بعض الأحاديث الشريفة تدل على أن اسم الله الأعظم في قوله: ﴿ الله لا إلّه إلا هو الحيُّ القيُّوم ﴾، فعن أسماء بنت يزيد بن السَكَن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿ الله لا إلّه إلا هو الحيُّ القيُّوم ﴾[1] و﴿ ألّمّ الله لا إلّه إلا هو الحيُّ القيُّوم ﴾: «إن فيهما اسم الله الأعظم»[2].

الخلْق والأمر

وقيامه سبحانه على الخلْق ليس قاصراً على إيجادهم وإمدادهم، فهو سبحانه قائم عليهم بالأمر أيضاً: ﴿ ألا له الخلقُ والأمرُ ﴾[3]، وبلَّغهم سبحانه أمره بواسطة رسله وكتبه، وهو ما أخبر عنه في قوله جل وعلا، في معرض بيان فضله على خلقه، مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله عليه الصلاة والسلام: ﴿ نزَّل عليك الكتاب بالحق ﴾: أي نزَّل عليك القرآن على التدرج بالحق الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل، وكل ما يخالفه باطل، ﴿ مُصدِّقاً لما بين يديه ﴾: أي يشهد بصدق ما أنزل الله تعالى قبله من الكتب، فالقرآن الكريم هو المرجع الذي ينبغي الرجوع إليه لمعرفة صحة الكتب التي يُدَّعى أن الله تعالى أنزلها، لأنه خاتم الكتب، وقد تكفل الله تعالى بحفظه، فلا يلحقه تغيير ولا تبديل، قال تعالى: ﴿ وإنه لكتابٌ عزيزٌ. لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد ﴾[4]، وقال أيضاً: ﴿ إنا نحن نزَّلنا الذكرَ، وإنا له لحَافظون ﴾[5].

وقد جعل الله تعالى القرآن الكريم شاهداً ومؤتمناً على الكتب التي أنزلها قبله، فقال: ﴿ وأنزلنا إليك الكتابَ بالحق مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتاب، ومُهَيْمناً

---

(١) آية الكرسي في سورة البقرة ٢٥٥.
(٢) مسند أحمد.
(٣) الأعراف: الآية ٥٤.
(٤) فصلت: الآيتان ٤١ ـ ٤٢.
(٥) الحجر: الآية ٩. وانظر كتاب الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر للمؤلف.

عليه، فاحكمْ بينهم بما أنزل الله ﴾[1]، فإن اسم المهيمن يتضمن معنى الأمين، والشاهـد، والحاكم على كل كتاب قبله، وهذا يدل على أن شريعة الإسلام ناسخة لكل الشرائع الإلّهية التي أنزلها الله تعالى قبلها[2].

وقد شهد القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ [٣] ﴿ من قَبْلُ هدى للناس ﴾: أي أنزلهما لهداية الناس الذين أنزلا إليهم، فالمراد بالناس بنو إسرائيل، الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل.

الـفـرقــان

وقال بعد ذلك: ﴿ وأنزل الفرقان ﴾: أي القرآن الكريم الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، فهو الفرقان لقوله عز وجل: ﴿ تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[3].

ودلَّ ذكره مرة ثانية في الآية بهذه الصفة (الفرقان) على أنه المرجع لجميع الناس، لمعرفة الدين الصحيح الذي تعبدهم الله تعالى به، ففيه كلمة الفصل بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، ولا يجوز بعد نزوله الرجوع إلى غيره من الكتب، فالفرقان في القرآن لا في غيره، بعد أن أنزله الله تعالى مصدِّقاً للكتب السابقة ومهيمناً عليها. ولا يقبل الله من أحد ديناً غير دين الإسلام الذي دعا إليه القرآن، وسيأتي معنا قوله تعالى: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ وقوله أيضاً: ﴿ ومن يَبْتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبل منه ﴾.

فالقرآن ناسخ لكل ما سبقه من الكتب والشرائع الإلّهية، ولا يقبل الله إلا دين الإسلام، وشريعته شريعة القرآن، ذلك هو الموضوع الأساسي الذي تدور سورة آل عمران في فلكه، كما سيظهر لنا من خلال آياتها الكريمة.

---

(١) المائدة: الآية ٤٨.

(٢) انظر الحلال والحرام في سورة المائدة للمؤلف.

(٣) الفرقان: الآية ١.

ومن يعرض عن رسالة القرآن ويكذب بآياته فهو كافر، مهما كان الدين الذي يتمسك به: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ في القرآن الكريم ﴿لهم عذابٌ شديدٌ﴾ بسبب كفرهم وإعراضهم عن القرآن، ﴿والله عزيز﴾ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ﴿ذو انتقام﴾ [٤] ذو سطوة وتسلط، يعاقب من يشاء بجنايته.

وأي جناية أعظم من تكذيب آياته تعالى، ووصفه جل وعلا بصفات لا تليق بكماله وجلاله، ووحدانيته، وقيوميته، وكمال علمه، وقدرته؟! ﴿إن الله لا يخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ [٥] فله سبحانه كمال العلم المحيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

التصـوير فـي الأرحـام

وهو سبحانه قائم عليكم منذ بداية وجودكم ﴿هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء﴾: أي هو الذي يصوركم وأنتم في أرحام أمهاتكم، فيعطي كل واحد منكم صورته وملامحه المميزة له عن غيره، كما قال جل جلاله: ﴿يا أيها الإنسانُ ما غرَّك بربك الكريم. الذي خلقك فسوَّاك فَعَدَلك. في أي صـورة ما شـاء ركَّبك﴾[1]، فصورتك التي أنت عليها، وما تحمل من خصائص وميزات تميزك عن غيرك، وتبرز هويتك وحقيقتك المتميزة، هي من صنع الله تعالى وحده، الذي يتولى تصوير كل المخلوقات بمحض إرادته، ومطلق مشيئته، فالمصور من أسمائه الحسنى، ﴿هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[2]، فلا يستحق العبادة غيره ﴿لا إلّه إلا هو العزيز الحكيم﴾ [٦] يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد مع الحكمة التامة.

وفي هذا رد لشبهات النصارى في عيسى عليه السلام، فالله هو الذي صوّر عيسى في رحم أمه مريم، كما صوّر سائر المخلوقات، فهو مخلوق من خلق الله

---

(١) الانفطار: الآيتان ٦ ـ ٨.

(٢) الحشر: الآية ٢٤.

تعالى، وعبد من عبيده، وليس إلّهاً أو ابن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

المحكـــم والمتشابـــه

ثم بيّنت الآيات بطلان الشبهة التي تمسك بها وفد نصارى نجران، وهي وصف القرآن الكريم لعيسى بأنه كلمة الله وروح منه، قال عز وجل: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكمات ﴾ واضحة المعنى، ظاهرة الدلالة، محكمة العبارة، محفوظة من الاحتمال والاشتباه[1] ﴿ هُنَّ أم الكتاب ﴾: أي هن الأصل والعمدة في القرآن، فغيرها يرد إليها في فهم آياته، ويرجع إليها عند الاشتباه[2].

﴿ وأُخَرُ متشابهات ﴾: أي وفي القرآن آيات أخرى، تحتمل دلالتها موافقة الآيات المحكمة، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد[3]. فمراد الله تعالى لا يتعارض ولا يختلف في كل آيات القرآن الكريم، إن ربي على صراط مستقيم.

ويدل قوله تعالى في المحكمات: ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أنها تشتمل على كل ما يحتاج إليه في الدعوة من أصول الاعتقاد، والعبادة، والحلال والحرام، والأخلاق، والوعد، والوعيد، والأخبار، والقصص، والأمثال، وغير ذلك.

وأما المتشابهات ففيها ما استأثر الله تعالى بعلمه، كوقت الساعة وأشراطها، والروح، والحروف المقطعة في أوائل بعض السور، وآيات صفات الذات الإلّهية، التي تقصر عقول المخلوقين عن الإحاطة بكنهها وحقيقتها، فنؤمن بثبوتها لله تعالى على المعنى اللائق به جل جلاله، دون تعطيل لها ولا تشبيه لله تعالى ببعض خلقه.

---

(١) روح المعاني ٣/٨٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/٣، ومختصر ابن كثير ١/٢٦٤.
(٣) انظر المختصر ١/٢٦٤.

﴿ فأما الذين في قلوبهم زَيْغ ﴾: أي ميل عن الحق، ومجانبة له، ﴿ فيتبعون ما تَشَابه منه ﴾: أي يتمسكون بالمتشابه من آيات القرآن وحده، ويتعلقون به، ولا يردونه إلى ما يطابقه من الآيات المحكمة، كي يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها، ويعرضون عن المحكم لأنه دافع لباطلهم وزيفهم، وحجة عليهم.

ولهذا بين سبحانه أغراضهم الخبيثة الفاسدة في تمسكهم بالمتشابه، فقال: ﴿ ابتغاءَ الفتنةِ ﴾: أي طلباً لفتنة الناس عن دينهم ﴿ وابتغاءَ تأويله ﴾ وطلباً لتأويله، حسب ما يشتهون من التأويلات الزائفة الباطلة. وهو ما فعله نصارى نجران، عندما احتجوا لضلالهم وزيفهم بأن القرآن ذكر بأن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وأعرضوا عن قوله تعالى: ﴿ إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾[1]، وقوله أيضاً - الذي سيأتي معنا -: ﴿ إن مثلَ عيسى عند الله كمثل آدمَ خلقه من ترابٍ ثم قال له كُنْ فيكون﴾، وقوله تعالى أيضاً: ﴿ لن يَستَنْكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكِفْ عن عبادتهِ ويَستكبرْ فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾[2]، وغيرها من الآيات المحكمة الصريحة الواضحة التي تدل على أن عيسى عليه السلام عبد لله تعالى، ورسول من رسله، وخلق من خلقه.

فالواجب رد الآيات المتشابهة إلى المحكمة لفهم حقيقة معناها، والوقوف على مراد الله تعالى منها، لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى لا تعارض فيه، يفسر بعضه بعضاً، ويشبه بعضه بعضاً، قال سبحانه: ﴿ الله نزَّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مَثَانيَ تَقْشَعِرُّ منه جلودُ الذين يخشَوْن ربهم، ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله .فما له من هاد ﴾[3].

---

(١) الزخرف: الآية ٥٩.

(٢) النساء: الآية ١٧٢.

(٣) الزمر: الآية ٢٣.

وقوله سبحانه عن عيسى: ﴿ إنما المسيحُ عيسى ابن مريم رسولُ الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ﴾ الآية[1]، يشبه قوله جل جلاله في آدم: ﴿ فَإذا سَوَّيْتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾[2].

فإضافة الروح إلى ذاته المقدسة إضافة تشريف وتكريم، مثل بيت الله وناقة الله، أو إضافة اختصاص، لأنه سبحانه استأثر بعلم حقيقة الروح فلا يعلم حقيقتها إلا هو جل جلاله. ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[3].

والمراد من وصفه لعيسى بأنه كلمته، الكلمة التكوينية التي خلقه الله تعالى بها، دل عليها قوله تعالى: ﴿ إن مَثَل عيسى عند الله كمَثَلِ آدمَ خلقه من ترابٍ ثم قال له كنْ فيكون ﴾ وقوله أيضاً: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[4].

الراسخــون فــي العلــم

فلا يستطيع أحد أن يقطع بالمعنى المراد للآيات المتشابهة بمعزل عن الآيات المحكمة، ما دامت الآيات المتشابهة تحتمل عدة معانٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾: أي لا يعلم حقيقة المعنى المراد من المتشابه استقلالاً وابتداءً إلا الله تعالى.

﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾: أي الثابتون في العلم، المتمكنون منه، الذين جمعوا في قلوبهم قوة الإيمان ورسوخ العلم، يقولون آمنا بالقرآن الكريم ﴿ كلٌّ من عند ربنا ﴾: أي كل من المحكم والمتشابه حق وصدق من كلام ربنا جل وعلا، فكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له، وليس شيء من عند الله

(١) النساء: الآية ١٧١.
(٢) الحجر: الآية ٢٩. انظر كتابنا: الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر.
(٣) الإسراء: الآية ٨٥. انظر كتابنا: المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء.
(٤) يّس: الآية ٨٢.

بمختلف أو متعارض ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[1].

فالراسخون في العلم يردون المتشابه إلى المحكم، ولا يحاولون تأويل المتشابه بمعزل عن المحكم، وإذا لم يجدوا في المحكم ما يبين المعنى المراد من المتشابه توقفوا عن الخوض في معناه، وقالوا: الله أعلم بمراده وأسرار كتابه، ولهذا توقف كثير من علماء التفسير عن الخوض في معاني الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور، وقالوا: إنها من الآيات المتشابهة التي لا يعلم حقيقة معناها إلا الله تعالى، وكذلك فعل علماء السلف في بعض آيات الصفات، فقد صدقوا بما أثبت الله تعالى فيها لنفسه من الصفات، من غير تشبيه ولا تعطيل، وأمسكوا عن الخوض لمعرفة حقيقة معناها، واضعين نصب أعينهم قوله تعالى في الآيات المحكمة: ﴿ ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير ﴾[2]، وقوله أيضاً: ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾[3]، جل جلاله وتباركت أسماؤه وتعالت صفاته.

﴿ وما يَذَّكَّرُ إلا أولوا الألباب ﴾ [٧]: أي ما يعرف هذه الحقائق وينتفع بها إلا أصحاب العقول، الذين يستعملون عقولهم بموضوعية، متجردين عن الهوى والزيغ.

دعاء وابتهال

ومن صفات الراسخين في العلم أنهم لا يغترّون بعلمهم، وإنما يقبلون على الله تعالى بضراعة وخشوع، يسألونه الهداية والتثبيت قائلين: ﴿ ربنا لا تُزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾: أي لا تُملها عن الهدى، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ وإلحاد، وثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم، ﴿ وهبْ لنا من لدنك

(١) النساء: الآية ٨٢.
(٢) الشورى: الآية ١١.
(٣) طه: الآية ١١٠.

رحمة ﴾ تهدي بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، ﴿ إنك أنت الوهّاب ﴾ [٨] كثير الهبات عظيم العطايا.

فلا غنى للإنسان عن رحمة الله تعالى وهدايته مهما كان عالماً، وهذا رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يدعو الله قائلاً: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» يفعل ذلك عليه الصلاة والسلام تعليماً لأمته وإرشاداً لهم، حتى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتخاف وأنت رسول الله؟ فقال: «يا عائشة، إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، فمن شاء أن يقلبه من الضلالة إلى الهدى، أو من الهدى إلى الضلالة فعل»(١).

وعنها أيضاً، أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل، قال: «لا إلّه إلا أنت سبحانك، اللهم إني أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب»(٢).

ثم يؤكدون دعاءهم بإعلان إيمانهم وتصديقهم بيوم القيامة: ﴿ ربنا إنك جامعُ الناسِ ليومٍ لا ريبَ فيه ﴾ لا شك فيه، وهو يوم القيامة ﴿ إن الله لا يُخْلفُ الميعاد ﴾ [٩].

ومن رحمته سبحانه، ولطفه بعباده الصالحين، علّمهم هذه الدعوات، يستنزلون بها هدايته وتثبيته، ولو لم يكن العبد محتاجاً إلى تثبيت الله تعالى وهدايته ما علمنا سبحانه مثل هذه الدعوات الكريمات.

أسباب الزيغ والضلال

ومن أكبر أسباب الزيغ والضلال الحرص على المصالح المادية والمراتب الدنيوية، وهو ما جعل كثيراً من أحبار ورهبان أهل الكتاب يأكلون أموال الناس بالباطل، ويعرضون عن الحق، ويطمسون معالمه، قال تعالى: ﴿ يَا أيها الذين

---

(١) رواه الطبراني، وله شاهد في صحيح مسلم وسنن الترمذي من حديث أنس.
(٢) رواه أبو داود.

آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾[1].

ومر معنا في سبب النزول أن أسقف وفد نجران اعترف بصدق النبي ﷺ، ومنعه من الإيمان حرصه على ما كان الروم يقدمونه له، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الذين كفروا ﴾ بسبب إيثارهم وحرصهم على الأموال والأولاد والمراتب الدنيوية ﴿ لن تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله شيئاً ﴾: أي لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله يوم القيامة، ﴿ وأولئك هم وَقُودُ النار ﴾ [١٠]: أي حطب النار، الذين تُسعَّر بهم يوم القيامة.

وشأن هؤلاء في استحقاق العذاب كشأن فرعون وملئه ﴿ كَدأْبِ آل فرعون والذين من قبلهم ﴾ من الأمم السابقة ﴿ كذَّبوا بآياتنا ﴾ وهم يعلمون صدقها، وآثروا عليها شهواتهم ومنافعهم ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾: أي أهلكهم بسبب ذنوبهم ﴿ والله شديد العقاب ﴾ [١١]، لمن أعرض عن آياته وكذب بها.

ويفشو هذا الأمر كثيراً بين المتأخرين من هذه الأمة، قال ﷺ: «بادروا بالأعمال فتِناً كقِطَع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا»[2].

آيــة مــن الله تعالــى

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يذكر أهل الكتاب من يهود المدينة المنورة، بما حدث في غزوة بدر، عندما نصر الله تعالى الفئة المسلمة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة، فقال: ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ في الدنيا ﴿ وتحشرون ﴾ يوم القيامة ﴿ إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ [١٢]: أي وبئس المهاد جهنم.

---

(١) التوبة: الآية ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم والترمذي.

﴿ قد كان لكم آية ﴾: أي دليل وبرهان على أن الله تعالى ناصر رسوله عليه الصلاة والسلام، ومعز دينه، ومظهر كلمته، ﴿ في فئتين التقتا ﴾ في بدر ﴿ فئةٌ تقاتل في سبيل الله ﴾ وهم البدريون من أصحاب الرسول ﷺ، وقد شهد الله تعالى لهم بإخلاص النية في قتالهم رضي الله عنهم ﴿ وأخرى كافرة ﴾ وهم مشركو قريش، الذين جاءوا إلى بدر بطراً وريـاء الناس ﴿ يَرَوْنهم مِثْلَيْهم رأيَ العين ﴾: أي يرى المشركون المسلمين مثليهم في العدد رؤية ظاهرة في أعينهم، مع أن الحقيقة مختلفة عما تراه أعينهم، فقد كان المشركون يقاربون الألف، بينما كان المسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً.

وكانت هذه الرؤية من أسباب النصر التي أيد الله تعالى بها المؤمنين في بدر، ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ وإذ يُريكُمُوهُمْ إذ التقتيم في أعينكِم قليلاً ويُقَلِّلُكُمْ في أعينهم ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً ﴾[1]، فقد حدث هذا في أول اللقاء، ليكون سبباً دافعاً كل فريق لقتال الآخـر ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ ثم بعد بدء القتال قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين، تشجيعاً لهم على قتالهم، ورفعاً لمعنوياتهم، وتأييداً لهم، وكثَّر المؤمنين في أعين المشركين.

﴿ والله يؤيد بنصرهِ من يشاء، إن في ذلك لعبرةً لأُولي الأبصار ﴾ [١٣]، ففي معركة بدر عبرة كبيرة، ودرس بليغ، لكل من له بصيرة وتعقل، والعاقل من وُعظ بغيره، والشقي من وُعظ بنفسه.

مقـارنــة

ثم عقدت الآيات مقارنة بين ما في الدنيا من المتاع واللذائذ والشهوات، وبين ما أعد الله تعالى لعباده الصالحين من النعيم في الجنة، من أجل تشويق المؤمنين إلى نعيم الجنة، ورفع هممهم إليها، وتزهيدهم بمتاع الدنيا الحقير،

---

(١) الأنفال: الآية ٤٤.

القليل، الزائل، ومن أجل بيان خساسة ودناءة أولئك المعرضين عن الحق، المكذبين لآيات الله تعالى، الذين آثروا المتاع الدنيوي الزائل على نعيم الجنة الخالد.

وهذه المقارنة أسلوب من أساليب التربية القرآنية الرفيعة، يبين الله تعالى فيه شدة تأثير الشهوات المادية على الإنسان، وضعف كثير من الناس أمامها، فهي السبب الرئيس لانحرافهم عن الحق، ومع البيان تحذير من خطر الاستجابة العمياء لها، وجاء التعبير القرآني محكماً ودقيقاً: ﴿ زُيِّن للناس حبُّ الشهوات ﴾ فهي شهوات محببة للناس ومزينة لهم، وليست محرمة عليهم.

فالبنية المادية لجسم الإنسان مخلوقة من تراب الأرض، وهو سبب كون هذه الشهوات الأرضية مزينة للإنسان، ومحببة إليه، ففي أصل بنيته الترابية ميل إليها، وانجذاب نحوها، فالآية الكريمة تقرر حقيقة واقعية، ولا تمنع الإنسان من الاستجابة للواقع الذي جُبل عليه ضمن الحدود المشروعة، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أَحَلَّ الله لكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين. وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يُحبُّ المسرفين. قل من حَرَّم زينة الله التي أخرجَ لعبادهِ والطيباتِ من الرزق، قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[٢]، فهي شهوات مستحبة مستلذة، وليست مستقذرة ولا كريهة، والتعبير القرآني لا يدعو إلى استقذارها ولا كراهتها[٣].

﴿ زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء ﴾ فبدأ بالنساء لأن الميل إليهن فطري، يتصل بتناسل الناس وتكاثرهم، وبقاء جنسهم، أو لأن الميل إليهن أشد، فقد ثبت في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على

(١) المائدة: الآيتان ٨٧ ـ ٨٨. وانظر الحلال والحرام في سورة المائدة.
(٢) الأعراف: الآيتان ٣١ ـ ٣٢.
(٣) انظر في ظلال القرآن ١/٣٧٤.

الرجال من النساء»، وإذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهو أمر مطلوب ومرغوب فيه، ومندوب إليه[١].

فالزواج بالنساء سنة نبوية، قال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾[٢]، وقال ﷺ: «حُبِّبَ إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»[٣].

﴿ والبنين ﴾ والأولاد الذكور، ولم تذكر الآية الإناث، لأن حبهن ليس مضطرداً عند جميع الناس، والآية تصف الواقع بقصد التزهيد بمتاع الدنيا، لا بقصد التشريع.

﴿ والقناطيرِ المُقَنْطَرةِ من الذهبِ والفضة ﴾: أي الأموال الكثيرة، والتعبير بالقناطير المقنطرة يدل على شدة حب المال عند الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ وإنه لحبِ الخيرِ لشديد ﴾[٤]، وكما قال أيضاً: ﴿ وتُحبون المال حباً جمّاً ﴾[٥]، كما تدل على عدم قناعة الإنسان بالقليل من المال، قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[٦].

﴿ والخيلِ المسومة ﴾: أي المطهمة الحسان، أو المعلمة بعلامات مخصوصة تميزها عن غيرها، وتظهر جمالها وأصالتها، كالغرة في وجوهها، والتحجيل في أطرافها. وكان الأغنياء ـ ولا يزالون ـ يتنافسون في اقتناء الخيل، كمظهر من مظاهر الوجاهة والأبهة والثراء.

﴿ والأنعامِ ﴾ وهي الإبل، والبقر، والغنم، ﴿ والحَرْث ﴾ في المزارع،

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٠.
(٢) الرعد: الآية ٣.
(٣) أخرجه أحمد من حديث أنس، والنسائي والحاكم.
(٤) العاديات: الآية ٨.
(٥) الفجر: الآية ٢٠.
(٦) متفق عليه.

والبساتين، والحدائق، ﴿ ذلك متاعُ الحياة الدنيا ﴾: أي ما يتمتع به في الحياة الدنيا، وهي زائلة قصيرة لا تصفو من كَدَر، ولا تخلو عن غِيَر.

رضـوان الله تعالـى

﴿ والله عنده حسنُ المآب ﴾ [١٤]: أي حسن المرجع، والعاقبة الحسنة، كما قال في آخر السورة: ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾.

وهكذا عرضت الآية الكريمة أهم شهوات الدنيا المادية، عرضتها لتبين قيمتها الحقيقية، بجانب ما أعد الله تعالى للمؤمنين من أنواع النعيم في الجنة، ليرفع هممهم، ويشد عزائمهم، فيتنافسوا في طاعته سبحانه، ويتسابقوا إلى رحمته وفضله.

﴿ قل أؤنَبِّئكم بخيرٍ من ذلكم ﴾ المتاع الدنيوي ﴿ للذين اتّقَوْا ﴾ ربهم بطاعته واجتناب محارمه، وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعاً، شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات، وأن تنساق فيها كالبهيمة[١] ﴿ عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ من غير تعب وعناء، ومن غير همٍّ وحزن، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، لا يهرمون ولا يموتون ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهبَ عنا الحزَنَ، إن ربنا لغفور شكور. الذي أحَلَّنا دار المُقامةِ من فضله، لا يمسُّنا فيها نصَبٌ ولا يمسُّنا فيها لُغوب ﴾[٢].

﴿ وأزواجٌ مطهرةٌ ﴾ عما يُستقذر من نساء الدنيا خلْقاً وخُلُقاً.

وفوق كل ذلك ﴿ ورضوانٌ من الله ﴾ وهو أعظم من كل ما تقدم، فلا يتم نعيم الجنة إلا به، ولا تكتمل سعادة أهل الجنة إلا إذا علموا أن الله جل وعلا راض عنهم، فهو كما قال تعالى: ﴿ وعدَ الله المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكنَ طيبةً، في جنات عدن، ورضوانٌ من الله أكبر، ذلك

---

(١) في ظلال القرآن ١/٣٧٥.

(٢) فاطر: الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

هو الفوز العظيم ﴾[1]. وجاء في الحديث الشريف: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[2].

﴿ والله بصيرٌ بالعباد ﴾ [١٥] عليم بأحوال عباده، فيثيب المحسن بفضله، ويعاقب المسيء بعدله.

أساليـــب وأفانيـــن

وللقرآن الكريم أساليب رفيعة، وأفانين رائعة، في عرض مقاصده وبيان أهدافه، فبعد أن عقد هذه المقارنة بين متاع الدنيا الزائل، وبين نعيم الجنة الخالد، فزهد النفوس بمتاع الدنيا، وشوقها إلى نعيم الجنة، وجعلها تتطلع إليه، وتسمو إليه بقلوبها وأرواحها إلى آفاقه المضيئة، شرع في بيان مقاصده بأسلوب لطيف رهيف، تنشرح له الصدور، وتنجذب إليه النفوس.

وقبل أن يتساءل سامع هذه الآيات أو قارئها عن أصحاب هذا النعيم والرضوان، أتاه الجواب من العالم بهواجس النفوس وخطرات القلوب بقوله عز وجل: ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنا ﴾ هذا هو المقصد الأساسي الأول، الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد، فلا يصل إلى نعيم الجنة والرضوان إلا المؤمنون الصادقون في إيمانهم، الذين يتوجهون إلى الله تعالى بكل هذا الخشوع، والاستسلام لجلاله وكماله: ﴿ يقولون ربنا إننا آمنا فاغفرْ لنا ذنوبنا، وقِنا عذاب النار ﴾ [١٦]، يسألونه المغفرة، والسلامة، والوقاية من عذاب النار، وهو إقرار بذنوبهم، واعتراف لله تعالى بتقصيرهم وضعفهم، ومثل

---

(١) التوبة: الآية ٧٢.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

ذلك لا يقدح بالتقوى إذا هدم بالتوبة والاستغفار[1] ـ وسيأتي معنا ما يؤكد ذلك ـ.

ويستدعي الإيمان بالله تعالى الصبر على طاعته، والصبر عن محارمه، والصبر عند ابتلائه وامتحانه ﴿ الصابرين ﴾، كما يستدعي أيضاً الصدق والإخلاص في الأعمال والأقوال ﴿ والصادقين ﴾، ولا بد لهم أيضاً من المداومة على العبادات والطاعات، والثبات عليها، مع التعظيم لله تعالى وخشيته ﴿ والقانتين ﴾، وإنفاق المال في طاعته ﴿ والمنفقين ﴾، ثم الإقبال على الاستغفار في أوقات تجلياته على عباده برحمته ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [١٧]، وهي السدس الأخير من الليالي قبل طلوع الفجر، والدعاء في هذا الوقت أقرب للإجابة، والعبادة فيها أشق، والنفس أصفى، والقلب أنقى. ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾[2]، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له»، هؤلاء المؤمنون، الصابرون، الصادقون، القانتون، المنفقون في طاعته، والمستغفرون بالأسحار، هم أصحاب الجنة والرضوان.

ولسيد قطب رحمه الله عند هذه الآيات كلمات لطيفة: وهكذا يبدأ القرآن بالنفس البشرية من موضعها على الأرض... وشيئاً فشيئاً يرف بها في آفاق وأضواء حتى ينتهي بها إلى الملأ الأعلى في يسر وهينة، وفي رفق ورحمة، وفي اعتبار لكامل فطرتها وكامل نوازعها، وفي مراعاة لضعفها وعجزها، وفي استجاشة لطاقاتها وأشواقها، ودون ما كبت ولا إكراه، ودون ما وقف لجريان الحياة[3].

شهـادة التوحيـد

الدعوة إلى توحيد الله تعالى دعوة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا

---

(١) نظم الدرر ٣/ ٢٨٠.
(٢) الذاريات: الآية ١٨.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٦.

فاعبدون ﴾[1]، وكل الكتب التي أنزلها الله تعالى تنادي بها، وتدعو إليها، فهي دعوة التوراة والإنجيل والقرآن، وغيرها من الكتب المنزلة.

والمفروض أن يسارع أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى قبول هذه الدعوة، التي نادى بها خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، فيؤمنوا بها، ويشهدوا على صحتها، وصدقها، ولهذا قال تعالى لهم: ﴿ وآمِنوا بما أنزلت مصدِّقاً لما معكم، ولا تكونوا أولَ كافرٍ به، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإياي فاتقون ﴾[2]. ولكنهم بدل أن يقبلوا على دعوة التوحيد، ويؤمنوا بها، ويشهدوا على صحتها وصدقها، أعرضوا عنها، وكتموا الشهادة التي ائتمنوا عليها، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون.. ﴾ وغيروا وبدلوا الكتب التي أنزلها الله عليهم.

ولن تعدم دعوة التوحيد من يشهد لها، فإذا كتم أهل الكتاب شهادتهم لها فإن الله تعالى بجلاله وكماله يشهد لها، وأهل سماواته من الملائكة والمقربين، وأولي العلم في أرضه يشهدون لها أيضاً: ﴿ شهِدَ اللهُ أنه لا إلَه إلا هو والملائكةُ وأولو العلم ﴾ إنها الشهادة التي تغني عن كل شهادة، لأنها أكبر وأعظم من كل شهادة، إنها شهادة الله على توحيده وكماله جل وعلا، وهي الشهادة التي قصد إليها القاصدون، وسلك من أجلها السالكون، إليها انتهت الإشارة، وعندها وقفت العبارة، وهي أنهى المقامات، وأعظم الشهادات، فمن شهد بها فقد شهد شهادة ليس وراءها مرمى، ومن شهد بما دونها كانت شهادته مشهوداً عليها لا شهادة[3]، فمهما غير الشهداء وبدلوا أو كتموا فإن شهادة الله تعالى تكشف زورهم، وتفضح تحريفهم وتبديلهم.

﴿ شهد الله أنه لا إلَه إلا هو ﴾ فمضمون الشهادة أنه سبحانه المستحق للعبادة والطاعة وحده، فلا شريك له ولا ولد (والملائكة) يشهدون ويقرّون، فلا يعبدون

---

(١) الأنبياء: الآية ٢٥.

(٢) البقرة: الآية ٤١.

(٣) نظم الدرر ٣/٢٨٩.

غيره ولا يطيعون سواه، جل وعلا، ﴿ وأولـو العلـم ﴾ الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، فهم العلماء على الحقيقة، والعلم الذي لا يدلك على الله تعالى ولا يقربك إليه، لا يكون علمـاً ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء ﴾(١)، الذين انتفعوا بعلومهم، فعبدوا الله وحده، ونزهوه تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿ قائماً بالقسط ﴾: أي مقيماً للعدل في جميع أموره، وهو بيان لكماله تعالى في أفعاله إثْر بيان كماله في ذاته، ونصب على الحال لأنه سبحانه في جميع أحواله كذلك(٢).

ثم كرر سبحانه الشهادة تأكيداً لهـا، وأضاف إليهـا اسمين من أسمائـه الحسنى، يـدلان على صفتين من صفات كمـالـه ﴿ لا إلـه إلا هـو العـزيـز الحكيم ﴾ [١٨]، والملاحظ أنه سبحانه ختم بهذين الاسمين الكريمين عدداً من آيات سورة آل عمران ـ كما مر معنا ـ ولا يخفى الاتساق الباهر بين صدر الآية وذيلها، فالعزيز: القوي القاهر الذي لا يُغلب، ولا يحتاج إلى شريك أو ولد، كما لا يحتاج إلى شهادة أحد يشهد على كماله ووحدانيته جل وعلا، والحكيم في كل أفعاله وأقواله، وفي قيامه بالقسط والعدل على جميع مخلوقاته.

ويجب على كلمسلم أن يشهد بهذه الشهادة بقلبه ولسانه ووجدانه، كما فعل رسول الله ﷺ، فعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولـو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ ثم قال: «وأنا على ذلك من الشاهدين»(٣).

---

(١) فاطر: الآية ٢٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/١٧.

(٣) أحمد في المسند.

وديعــة عنــد الله

تعال يا أخي القارئ نشهد بما شهد الله تعالى به والملائكة وأولو العلم، وبما شهد بـه سيدنا رسول الله ﷺ، ونستودع الله هذه الشهادة إلى يوم القيامة، كما كان السلف يفعلون، روى ابن كثير عن غالب القطان[1] قال: أتيت الكوفة في تجارة، فنزلت قريباً من الأعمش، فلما كانت ليلةُ أردت أن أنحدر[2]، قام فتهجد من الليل، فمر بهذه الآية: ﴿ شهد الله.... ﴾ ثم قال: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عنده وديعة ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ قالها مراراً، قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فغدوت إليه فودعته، ثم قلت: يا أبا محمد إني سمعتك تردد هذه الآية، قال: أو ما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا عندك منذ شهر لم تحدثني، قال: والله لا أحدثك بها إلى سنة، فأقمت سنة فكنت على بابه، فلما مضت السنة، قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة، قال: حدثني أبو وائل عن عبد الله ـ ابن مسعود ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله عز وجل: عبدي عهد إليَّ، وأنا أحق من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة»[3].

ويؤيده حديث البطاقة، وهو عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً، أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فقال: لا يا رب، فيقول الله تعالى: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إلّه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كِفّةٍ والبطاقة في كِفّةٍ، فطاشت السجلات وثقُلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»[4].

---

(١) من رواة السنة.

(٢) أسافر إلى البصرة.

(٣) مختصر ابن كثير ١/٢٧٢، ورواه الطبراني في الكبير.

(٤) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان والبيهقي والحاكم وصححه.

الإسلام دين الله

وكما أنه سبحانه واحد فدينه أيضاً واحد، دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، إنه الإسلام القائم على الاستسلام الكامل لله تبارك وتعالى وحده، إن الإسلام هو الدين الذي شرعه الله بالقرآن الكريم، وشرعه أيضاً بالتوراة والإنجيل قبل أن يطرأ عليهما التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾[١]، وجاء في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر إرميا، الجملة التاسعة منه ما يلي: إن النبي الذي تدور نبوءاته حول الإسلام (شالوم) عند ورود كلمة النبي، ذلك النبي هو المعروف أنه المرسل من قبل الله بالحق (إرميا ٢٨/٩).

نقل هذه الجملة البروفسور ديفيد بنجامين القسيس في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في كتابه: محمد في الكتاب المقدس، وعلق عليها بقوله: ومن الحقائق المسلم بها أن كلمة (شالوم) و(سلام) السريانية و(إسلام) كلها من نفس الجذر السامي (شلام)، وتحمل نفس المعنى، وهذا أمر يعترف به جميع علماء اللغات السامية، وفعل (شلام) يدل على الخضوع والاستسلام... ولا يوجد أي نظام ديني في العالم يحمل اسماً أو وصفاً أفضل وأشمل وأكثر هيبة وسمواً من الإسلام، فالدين الحق لله الحق، لا يمكن أن يسمى باسم أيٍّ من عباده، ولا أن يدعى باسم شعب معين أو اسم بلد معين[٢].

ولقد قال الله تعالى بأسلوب التأكيد والجزم: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾: أي الاستسلام والخضوع لله وحده جل وعلا، مع تنزيهه عن الشريك والولد، هو أساس دين الله، ولا دين عند الله سواه، ولا يقبل الله ديناً لا يقوم على هذا الأساس، وسيأتي معنا قوله جل وعلا: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾.

---

(١) الشورى: الآية ١٣.

(٢) محمد في الكتاب المقدس ١٢٨.

وقد يقال: ما دام الدين عند الله الإسلام، وهو الذي دعا إليه جميع الأنبياء، ونزلت به كل الكتب الإلهية، فلماذا اختلف أهل الكتاب في الإسلام الذي نزل به القرآن على محمد ﷺ؟.

وجاء الجواب على هذا القول بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وما اختلفَ الذين أُوتوا الكتابَ إلا من بعدِ ما جاءَهم العلم﴾ في القرآن الكريم بأن دين الله هو الإسلام القائم على توحيد الله تعالى ﴿ بغياً بينهم ﴾: أي حسداً كائناً بينهم، طلباً للمراتب، وإيثاراً للشهوات، ﴿ ومن يكفُرْ بآياتِ الله ﴾ بالتكذيب بها، والإعراض عنها، ﴿ فإن الله سريع الحساب ﴾ [١٩].

كلمة الفصل

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يوجه إلى الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم الكلمة الفاصلة، المميزة بين الإيمان والكفر، فقال: ﴿ فإن حاجُّوك ﴾: أي جادلوك في الإسلام، والتوحيد ﴿ فقل أسلمتُ وجهيَ لله ﴾: أي أعلن لهم خضوعك لله تعالى واستسلامك الكامل له، لتكون القدوة الحسنة في الإسلام، ولتظهر لهم عدم تأثرك بكفرهم وإعراضهم، وكثيراً ما كان إبراهيم عليه السلام يفعل مثله، فإنه كان كلما جادل قومه، ورأى إعراضهم عن دعوته، رد عليهم بإعلان خضوعه واستسلامه لله تعالى، وقد حكى الله تعالى هذا عنه في مواضع متعددة، منها قوله عز وجل: ﴿ إني وجهتُ وجهيَ للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾(١).

وكذلك أسلم وجهه لله تعالى كل من آمن بي واتبعني ﴿ ومن اتَّبَعَنِ ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾(٢).

---

(١) الأنعام: الآية ٧٩.

(٢) يوسف: الآية ١٠٨.

ثم أمره الله تعالى بعد التخصيص بتعميم الخطاب لجميع الناس ﴿ وقل للذين أُوتوا الكتاب والأُمِّيِّين ﴾ من غير أهل الكتاب ﴿ ءَأَسْلمتم ﴾ متبعين لي كما فعل المسلمون؟ أم أنتم على كفركم؟ وجاء السؤال على سبيل القطع والجزم بسبب ما تقدمه من الأدلة الكافية ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدَوْا ﴾ إلى الحق، ونجوا من الضلال، ﴿ وإن تَوَلَّوْا ﴾ عن الإسلام وأعرضوا ﴿ فإنما عليك البلاغُ ﴾: أي ما عليك إلا البلاغ، وقد بلغتهم، ولن يضرك إعراضهم ﴿ والله بصيرٌ بالعباد ﴾ [٢٠] عالم بجميع أحوالهم.

ولا يخفى ما فيها من تهديد ووعيد، وما فيها من تقرير للكسب والاختيار عند الإنسان، وهي من أصرح الدلالات على عموم رسالة الإسلام، وعموم بعثته عليه الصلاة والسلام(١).

قتلة الأنبياء والمصلحين

وعـزّز الله هذا الـوعيد، فكشف بعض جـرائمهم الكبيـرة بحق الأنبيـاء والصالحين، فقال: ﴿ إن الذين يكفرون بآياتِ الله ويقتلون النبيين بغيرِ حق ﴾ وهم اليهود الذين قتلوا كثيراً مِن الأنبياء عليهم السلام، وحاولوا أيضاً قتلَ إمام الأنبياء وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، فعصمه الله تعالى من كيدهم ومكرهم.

وقوله: ﴿ بغير حق ﴾ يبين شناعة وقبح جرائمهم، أي أقدموا على قتلهم وهم يعلمون أنهم يقتلونهم بغير حق ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط ﴾: أي بالعدل ﴿ من الناس ﴾ وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وفي الآية دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوف القتل(٢). قال تعالى مقرراً وصية لقمان لولده: ﴿ يا بني أقم الصلاة وَأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكرِ واصبرْ على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور ﴾(٣).

ولعل هذا سبب انعدام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعات أهل

(١) انظر مختصر ابن كثير ١/٢٨٣.
(٢) تفسير القرطبي ٤/٤٨.
(٣) لقمان: الآية ١٧.

الكتاب عموماً واليهود خصوصاً، حتى فشت فيها المنكرات وشاعت، وضرب الله قلوب بعضهم ببعض، أو لعنهم على لسان أنبيائهم، كما قال سبحانه: ﴿ لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسانِ داودَ وعيسى ابنِ مريم، ذلك بما عَصَوا، وكانوا يعتدون. كانـوا لا يتناهَوْن عن منكرٍ فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[1].

والجدير بالذكر أن قتل اليهود للأنبياء والصالحين ذكر في كتبهم، وعلى لسان مؤرخيهم، ففي الإصحـاح الثاني عشـر من سفر الملوك الأول، من الـطبعـة البروتستانتية: أن إيزابيل زوجة أخاب قتلت أنبياء الرب. وذكر يوسيفوس المؤرخ اليهودي القديم من رجال القرن الأول الميلادي: أن هيرودوس الثاني ملك اليهود قتل كثيراً من علماء اليهود، وقتل يوحنا بن زكريا الحبر الأعظم[2].

وهذه الجرائم تدل على غلظة اليهود وقسوتهم، وأنهم لا يتورعون عن أي جريمة من أجل مصالحهم وشهواتهم.

وجاءت خاتمة الآية تحمل لهم التأنيب والتوبيخ على هذه الجرائم بقول الحق جل وعلا: ﴿ فبشرهم بعذابٍ أليم ﴾ [٢١] مـوجع مهين. ﴿ أولئـك ﴾ المجرمون ﴿ الذين حبِطَتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرة ﴾: أي فسدت في الدنيا، وسقطت في الآخرة ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ [٢٢] ينصرونهم من بـأس الله وعذابه، فأعمالهم الدينية التي يزعمون أنها تقربهم إلى الله تعالى فاسدة باطلة ساقطة.

وكأن الآية نزلت في عصرنا الحاضـر في هؤلاء الذين يسمـون أنفسهم المتدينين من اليهود، أو حزب المتدينين، وهم أخبث اليهود وأكثرهم شراً وإجراماً وظلماً.

أكـاذيـب وأضـاليـل

والعجيب أنهم لم يعرضوا عن القرآن الكريم فقط، بل أعرضوا أيضاً عن الكتاب الذي أنزل عليهم ﴿ ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾: أي أعطوا

---

(١) المائدة: الآيتان ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) التفسير الحديث ٨/٨٧.

التوراة، وهي جزء من الكتب التي أنزلها الله تعالى، أو أعطوا فهم جزء من العلوم والأحكام في الكتاب الذي أنزله الله عليهم[1] ﴿ يُدعوْن إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾: أي يُدعون إلى التوراة ليحكم بينهم في شأن اتباع النبي ﷺ، والتصديق برسالة القرآن، فقد ذكر الله تعالى صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، وأخبر عن ذلك في القرآن، قال تعالى: ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرُهم بالمعروفِ وينهاهم عن المنكر، ويحلُّ لهم الطيباتِ ويحرمُ عليهمُ الخبائثَ، ويضع عنهم إصرَهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به، وعزّروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[2]، وسيأتي معنا شواهد من كتبهم تؤكد ذلك.

﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ وهم أحبارهم ورهبانهم عن قبول دعوة النبي ﷺ ﴿ وهم معرضون ﴾ [٢٣] عن الانقياد والإذعان لرسالة الإسلام.

وجرَّأهم على مخالفة الحق والإعراض عنه ما يرددون من أضاليل وأكاذيب: ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ فهم يزعمون لأنفسهم مكانة خاصة عند الله، وأنه سبحانه لن يعذبهم يوم القيامة في النار إلا مقدار الأيام التي عبدوا فيها العجل.

ومع أنه كذب وافتراء، رسخ بعد ذلك في اعتقادهم، وتطاول الزمان وهم على هذا الباطل، حتى أنسوا به واطمأنوا إليه، فما كذّب أحد بحق إلا عوقب بتصديق باطل، وما ترك قوم سنة إلا أحيوا بدعة[3].

وقد أوقعهم هذا في غرور في دينهم، فاستهانوا بعذاب الله، واقترفوا المعاصي والجرائم ولا يزالون، واغتروا بأنفسهم واستكبروا وأعرضوا عن الحق، فهم يعتقدون أن النبوة لا تكون إلا فيهم، فأعرضوا عن دعوة النبي ﷺ، وأنكروا نبوته ﴿ وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ [٢٤] من أكاذيب وأضاليل.

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/٢٠.

(٢) الأعراف: الآية ١٥٧.

(٣) نظم الدرر ٤/٣٠٤.

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريبَ فيه ﴾: أي لا شك في وقوعه، وهو يوم القيامة ﴿ ووُفِّيت كل نفسٍ ما كسبت ﴾ من عمل دون نظر إلى أصلها وجنسها ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾ [٢٥] بزيادة عذاب أو نقص ثواب.

مناجاة

وتوجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تعلمه كيف يناجي ربه جل وعلا بهذه الكلمات الخاشعة، وتحمل له عليه الصلاة والسلام البشارة والسلوى، البشارة بالنصر والغلبة، والسلوى عما يلقاه من كيد أهل الكتاب وجحودهم، وترد على أولئك الذين يرون أن النبوة حِكْر عليهم، لا تكون في غيرهم: ﴿قل اللهم مالكَ الملك﴾: أي يا مالك الملك ﴿تؤتي الملك من تشاء، وتنزِع الملك ممن تشاء، وتُعِزّ من تشاء، وتُذِل من تشاء﴾: أي أنت وحدك المعطي والمانع، والمعز والمذل، فما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن، فأنت المتصرف في خلقك وملكك، الفعال لما تريد.

وكلمة (تنزِع) تدل على الشدة والقوة والعنف، وما نزع الله الملك من أحد إلا بالشدة والقوة، لأنه سبحانه يعلم شدة حرص الناس على الملك والسلطان.

قال ابن كثير رحمه الله: وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأن الله تعالى حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي خاتم الأنبياء على الإطلاق... ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع[١].

﴿ بيدك الخير ﴾ والشر أيضاً، وحذف لأنه موضع دعاء ورغبة ومناجاة، فالآية تعلمنا أدب مناجاة الله تعالى ودعائه.

﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾ [٢٦] فله سبحانه كمال القدرة.

---

(١) انظر المختصر ١/٢٧٥.

ومن المظاهر الدالة على كمال قدرته جل وعلا ما جاء في قوله: ﴿ تُولِجُ الليلَ في النهار، وتولجُ النهارَ في الليل ﴾ وهي ظاهرة كونية بارزة لجميع المخلوقات، سواء في تداخل الليل والنهار بطول أحدهما ونقص الآخر، أو في تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وكل ذلك يتم بمقتضى ناموس كوني محكم، يدل على وجود خالق فاعل مختار، واحد لا شريك له ولا ولد.

﴿ وتخرج الحيَّ من الميتِ وتُخرجُ الميِّتَ من الحي ﴾ وهي ظاهرة ثانية مبثوثة في جميع الأحياء، تجري بانتظام وتدبير، حتى في داخل أجسامنا في كل لحظة، بانقسام الخلايا وموتها وتجددها، تدل على وجود اللطيف الخبير، قال تعالى: ﴿ إن الله فالقُ الحبِّ والنوى، يخرج الحيَّ من الميتِ ومُخرِجُ الميتِ من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾[١].

﴿ وترزقُ من تشاء بغير حساب ﴾ [٢٧] من غير تقتير ولا تضييق، أو من غير عدد ولا مطالبة.

فهو سبحانه المالك والمدبر لأمور مخلوقاته، فكأن الآيتين تقرران مضمون ما سبق في قوله تعالى أول السورة: ﴿ الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم ﴾ فقيام المخلوقات كلها بمشيئته تعالى وقدرته، كما أن أسلوب الخطاب والمناجاة في الآيتين يبين لنا كيف يكون الإسلام والاستسلام لله عز وجل، وهو الاستسلام الذي أُمر النبي ﷺ بإعلانه فيما مر معنا من قوله تعالى: ﴿ فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وجهيَ لله ومن اتّبعنِ ﴾ وأن يدعو إليه أهل الكتاب وغيرهم ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم﴾. فلا يكون إسلام إلا بالتحرر الكامل، والانسلاخ التام عن كل حول وقوة، إلى حول الله وقوته وتدبيره، إذ هو وحده المعطي والمانع، والمحيي والمميت، والمعز والمذل، جل جلاله.

وهي المرة الثانية التي تحملنا فيها آيات سورة آل عمران إلى أبواب فضله تعالى، وساحات جوده وكرمه، وكما جاءت في المرة الأولى منسجمة مع سباقها في

---

(١) الأنعام: الآية ٩٥.

موضوع الزيغ والضلال ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ جاءت في هذه المرة أيضاً منسجمة مع إعراض أهل الكتاب ومكرهم وكيدهم، وهي ليست تأسية وتسلية للنبي ﷺ وحده في مواجهته لكيد اليهود ومكرهم، وتعنّت النصارى وعنادهم، بل هي لكل المكروبين والمهمومين والمحزونين من هذه الأمة المسلمة، وهي تواجه أيضاً كيدهم ومكرهم وعنادهم.

اللهم اجعل القرآن الكريم نور أبصارنا وبصائرنا، وربيع قلوبنا ونفوسنا، وجِلاء همومنا وأحزاننا.

التحذير من موالاة الكافرين

ولما كانت موالاة الكافرين تتنافى مع الاستسلام لله تعالى، ومع التجرد عن كل حول وقوة إلى حوله تعالى وقوته، حذرت الآيات الكريمة المؤمنين من موالاة الكافرين، وبينت لهم عواقبها الوخيمة بقوله تعالى: ﴿ لا يتخذِ المؤمنون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين ﴾: أي لا يتخذ المؤمنون من الكافرين أنصاراً وأصحاباً وأحباباً، فالمؤمنون أولى بهذه الموالاة، كما قال سبحانه: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بعض﴾[١] ثم توعد سبحانه من يواليهم بقوله: ﴿ ومن يفعلْ ذلك فليس من الله في شيء ﴾: أي فقد بريء من الله، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾[٢]. وقال أيضاً: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾[٣]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾: أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما قال البخاري عن أبي الدرداء: (إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم)، وقال ابن عباس: (ليس التقية بالعمل،

---

(١) التوبة: الآية ٧١.

(٢) النساء: الآية ١٤٤.

(٣) المائدة: الآية ٥١.

إنما التقية باللسان)[1] ويؤيده كما قال ابن كثير قول الله: ﴿ إلا من أُكرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾[2].

وفي هذا دليل على جواز مداراة الكفار والفسقة والظلمة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم لكف أذاهم، وقطع لسانهم، وصيانة العرض منهم، ولا يعد ذلك من باب الموالاة[3].

ثم قال سبحانه محذراً: ﴿ ويحذركم اللهُ نَفْسَه ﴾: أي سطوته، وعذابه، وانتقامه، ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [٢٨] المرجع والمنقلب، فيجازي كل عامل بعمله.

وأصل الموالاة ومنبعها من القلب، والله سبحانه يعلم ما في القلوب وما تكنه الضمائر والصدور ﴿ قل إنْ تُخفوا ما في صدوركم أو تُبْدُوه يعلمْه اللهُ، ويعلمُ ما في السموات وما في الأرضِ والله على كل شيء قدير ﴾ [٢٩].

والآية مع تقريرها لكمال علم الله تعالى وقدرته، تحمل معنى التحذير والوعيد من موالاة الكافرين، مما يدل على خطورتها وعظم المسؤولية عنها يوم القيامة.

﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً ﴾ لديها في كتاب أعمالها ﴿ وما عملت من سوءٍ ﴾ محضراً أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿ ووضع الكتابُ فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾[4].

وحينئذ ﴿ تَوَدُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾: أي تتمنى كل نفس لو أن بينها وبين هذا اليوم فاصلاً كبيراً، يفصلها عنه من الزمان أو المكان، لشدة أهوال هذا اليوم.

---

(١) المختصر لتفسير ابن كثير ١/٢٧٦.
(٢) النحل: الآية ١٠٦.
(٣) روح المعاني ٣/١٢٢.
(٤) الكهف: الآية ٤٩.

ثم كررت الآيات التحذير من غضب الله تعالى وعذابه، كي تستأصل كل موالاة للكافرين من قلوب المؤمنين، فلا يبقى في قلوبهم أدنى ميل إليهم، أو تعلق بهم: ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وتكرير التحذير والوعيد من رأفته سبحانه ورحمته بعباده المؤمنين ﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ [٣٠]، فالتحذير من المعاصي، وإبعادهم عنها يقربهم من رحمته سبحانه وإحسانه.

طريــق الوصـــول

وتستدعي موالاة الكافرين محبتهم والميل إليهم، بينما الإيمان بالله تعالى يستدعي محبة الله تعالى وطاعته، فكيف تجتمع في قلـب المؤمن محبة الله تعالى ومحبة أعدائه؟!! هذان لا يجتمعان، ونقيضان لا يتفقان، فلا تجتمع محبة الله تعالى إلا مع محبة أحبابه وأوليائه، وأعظم الخلق مكانة ومحبة عند الله تعالى سيدنا رسول الله ﷺ، ولهذا جعل الله تعالى محبة رسول الله ﷺ واتباعه والتمسك بسنته دليلاً على محبة الله تعالى، فقال عز وجل: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحْبِبْكُم الله ﴾: أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهـو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، فليس الشأن أن تُحِب، إنما الشأن أن تُحَب، كما قال بعض العلماء[١].

فالتمسك بسنته عليه الصلاة والسلام والاقتداء به ومتابعته، توصل إلى مرتبة عالية رفيعة، وهي محبة الله تعالى إياه، فـطريق الوصـول في محبة ومتـابعة الرسول ﷺ، وكل طريق سواه مسدود، وكل عمل يخالفه مردود. ورحم الله ابن كثير عندما قال: هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي، والـدين النبوي[٢]، في جميـع أقوالـه وأفعالـه، كمـا ثبت في الصحيـح عن

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٧٧.

(٢) ليته قال: حتى يتبع الشرع الإسلامي والدين الإلّهي.

رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(١)، وتوصل متابعة الرسول ﷺ إلى مغفرة الذنوب أيضاً: ﴿ ويغفرْ لكم ذنوبكم ﴾ إذا تبتم واستغفرتم، فلا بد لمن يطلب المغفرة من التوبة والاستغفار، قال تعالى: ﴿ وإني لغفارٌ لمن تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحاً ثم اهتدى ﴾(٢).

وكان ﷺ يحث على كثرة الاستغفار، ويكثر منه، ويقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٣)، ويقول أيضاً: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»(٤)، ﴿ والله غفور رحيم ﴾ [٣١] يغفر ويرحم أحبابه المؤمنين المتبعين لسنة رسوله ﷺ.

وفي الآية رد على أهل الكتاب الذين يقولون: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ فأحباب الله هم أتباع رسول الله ﷺ.

ولا بد للمتابعة من الطاعة الكاملة، فالإسلام استسلام وخضوع وإذعان، والمتابعة لا تكون إلا بالطاعة الكاملة ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ طاعة مطلقة عن أي قيد ﴿ فإن تَوَلَّوْا ﴾: أي أعرضوا عن طاعة الله تعالى والرسول ﷺ ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ [٣٢].

وهذا يدل على أن الإعراض عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام يعرض صاحبه للكفر، كما يدل على أن ادّعاء المحبة الخالية عن الطاعة غير نافع لصاحبه.

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٢٧٧.
(٢) طه: الآية ٨٢.
(٣) البخاري عن أبي هريرة.
(٤) مسلم عن الأغر بن يسار المزني.

الفصل الثاني

الإنجيل والنصارى

تمهيد

وبعد أن انتهت آيات السورة من هذه المقدمة، عن التوراة والإنجيل والقرآن، والحديث عن أسباب الزيغ والضلال، ودعوة الأنبياء والمرسلين إلى توحيد الله تعالى، وتنزيهه عن الشريك والولد، وأن دين الله هو الإسلام، وبعد الرد على الأكاذيب والأضاليل التي يتمسك بها أهل الكتاب، وبيان طريق الوصول إلى محبة الله تعالى باتباع ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ.

شرعت الآيات بعد كل هذا تبيّن حقيقة عيسى عليه السلام، وكيفية خلق الله تعالى له، ورسالته التي يدعو إليها، والمعجزات التي أيده الله بها، وهذا الجانب من الأهداف الأساسية الكبرى لسورة آل عمران، التي أنزل الله صدرها بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران على النبي ﷺ ومجادلتهم له في طبيعة عيسى عليه السلام ـ كما مر معنا في سبب النزول ـ.

الاصطفاء

أخبر الله تعالى في بداية قصة عيسى عليه السلام وأمه مريم أنه اختار آدم، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران، لمقام النبوة، فقال عز وجل: ﴿ إن الله اصطفى آدم ﴾ من بين أولاده الذين أخذوا يتناسلون ويتكاثرون ليكون نبياً لهم، ﴿ونوحاً﴾ ليكون نبياً يحمل رسالة الله تعالى إلى أهل زمانه، ﴿ وآل إبراهيم ﴾ الذين اصطفى منهم إبراهيم عليه السلام والأنبياء من بعده، واصطفى أيضاً من آل إبراهيم خاتم الأنبياء، سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ الهاشمي القرشي، الذي يتصل نسبه

بإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. ﴿ وآل عمران ﴾ الذين اصطفى الله تعالى منهم مريم لتكون أمّاً لعيسى عليه السلام، كما اصطفى ولدها عيسى ليكون نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل.

فعيسى عليه السلام هو عبد لله تعالى، اختاره الله للنبوة كما اختار غيره لها، ﴿ على العالمين ﴾ [٣٣]: أي على عالمي زمانهم(١). فكل واحد منهم اصطفاه الله تعالى وفضله على العالمين في زمنه، إلا نبينا ﷺ خاتم الأنبياء، فقد اصطفاه الله تعالى وفضّله على العالمين مطلقاً، إذ اختاره لأكمل رسالة وأعظم أمانة، وهي رسالة الإسلام، الدين الذي رضيه الله لعباده فأتمه وأكمله، وتعبدهم به، فلا يقبل الله من أحد سوى دين الإسلام إلى يوم القيامة.

وجعل الله تعالى هؤلاء المصطفين من الأنبياء والمرسلين ذرية، ينتسب بعضهم إلى بعض، من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ، ﴿ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ [٣٤]، سميع لأقوالهم، عليم بأحوالهم، فهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وما اصطفاهم إلا لعلمه بأحوالهم الطيبة، وأخلاقهم الرفيعة.

فعيسى عليه السلام فرع من شجرة النبوة المفتتحة بآدم عليه السلام، والمختتمة بسيدنا محمد ﷺ.

ثم بدأت الآيات قصة عيسى عليه السلام بالحديث عن أمه مريم، وأمها امرأة عمران.

امرأة عمران

بدأت القصة في بيت آل عمران من بيوت بني إسرائيل في فلسطين، وهو بيت علم وعبادة وصلاح، كما دلت عليه الآية السابقة، وكانت فلسطين في ذلك الوقت تحت نير الاحتلال الروماني، وتعد جزءاً من الامبراطورية الرومية في عهد

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٦٣.

الامبراطور أوكتانيوس، الملقب بأوغسطس قيصر، الذي امتد حكمه من سنة ٢٧ ق. م. إلى سنة ١٤ م[١].

﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ عندما أحست بأنها حامل، ويبدو أن حملها جاء متأخراً. ولهذا نذرته لخدمة المعبد في بيت المقدس عندما أحست به.

﴿ رب إني نذرت لك ما في بطني محرَّراً ﴾ عن عمل الدنيا، ليتفرغ للعبادة وعمل الآخرة، فيعمل طول حياته في خدمة الكنيسة[٢].

وكان مثل هذا النذر جائزاً في شريعتهم، ﴿ فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ﴾ [٣٥]، تسمع دعائي وتعلم حالي.

وكانت تأمل أن يكون الجنين ذكراً، فما كان من عاداتهم أن ينذروا الإناث للتفرغ للعبادة وخدمة الهيكل.

الوليـــدة النذيـــرة

﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى ﴾ وما قصدت بذلك القول الإعلام، فعلمه سبحانه محيط بها وبما في بطنها، ولكنها أظهرت التحسر وخيبة الأمل في ولادة مولود ذكر، ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ جاءت الجملة معترضة في أثناء كلام امرأة عمران، لتعظيم المولودة التي وضعتها، وتفخيم شأنها، وما قدر سبحانه أن يجري من الأمور العظيمة الخارقة على يد هذه المولودة. ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ وهو اعتذار منها لعدم تمكنها من الوفاء بنذرها على الوجه الكامل، فللذكر فضيلة ومزية على الأنثى، لكونه أقدر على الخدمة في أماكن العبادة.

﴿ وإني سميتها مريم ﴾ وكأنها تتقرب إلى الله تعالى في تسميتها، فإن مريم في لغتهم بمعنى العابدة[٣].

---

(١) انظر كتاب المسيح إنسان أم إله.
(٢) انظر روح المعاني ٣/١٣٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٣/٢٩.

ويبدو أن والد مريم قد توفي قبل ولادتها، فاستبداد الأم بالنذر والتسمية وإغفال الآية أي ذكر لـه يدل على ذلك.

وختمت الأم الصالحة دعاءها بتعويذ الوليدة النذيرة، وتعويذ ذريتها بالله عزوجل من شر الشيطان الرجيم: ﴿ وإني أعيذها بك ﴾: أي أجيرها بحفظك ورعايتك ﴿ وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ [٣٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مسّه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مسه إيـاه إلا مريم وابنهـا»(١). والحديث يدل على أنه لم يكن لمريم ذرية إلا عيسى عليه السلام.

في كفالـة زكريـا

وقبل الله تعالى نذر هذه المرأة الصالحة، واستجاب لدعائها، وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿ فَتَقَبَّلَها ربها بقَبولٍ حَسَن ﴾: أي تقبلها من أمها نذيرة، ولم تُقبَل قبلها أنثى، وأحاطها سبحانه بعنايته ورعايته ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ بما يسر لها من أسباب الرعاية والعناية ﴿ وكفَّلها زكريا ﴾: أي جعل كفالتها ورعايتها إلى نبي كريم، هو زكريا عليه السلام، وكان زوج أختها، كما ورد في الحديث الصحيح عن الإسراء والمعراج عندما رأى النبي ﷺ يحيـى وعيسى في السماء قال: «فإذا يحيـى وعيسى وهما ابنا الخالة»، ورأى بعضهم أن زكريا كان زوج خالة مريم، وبهذا الاعتبار يمكن أيضاً أن يكون يحيـى وعيسى عليهما السلام ابني خالة.

وهكذا يسّر الله تعالى لمريم كل أسباب الصلاح والطهر والعفاف، إذ نشأت في رعاية نبي كريم، خصص لها مكاناً في المعبد خاصاً بها لتعبد الله فيه، وما كان أحد يدخل عليها غير كافلها وراعيها زكريا عليه السلام، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ وهو مكان العبادة، ويطلق في اللغة على أكرم موضع في المجلس، ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾: أي طعاماً، مما يدل على أن الله

---

(١) متفق عليه.

تعالى كان يرزقها ما تحتاج إليه من الطعام، وهي في داخل محرابها، وما كانت تحتاج إلى الخـروج ومخالطة الناس طلباً للرزق والطعام، فقد كفاها ربها سبحانه وتعالى المؤونة بما يسر لها من المعونة.

وكلمة (كلما) تدل على التكرار والاستمرار، مما يدل على النشأة الكريمة العفيفة التي نشأت عليها مريم، ويتعجب النبي الكريم مما يرى من طعام ورزق عندها، فيسألها سؤال المتعجّب: ﴿ قال يا مريم أنّى لك هذا ﴾: أي من أين يجيء لك هذا الطعام، والأبواب مغلقة عليك؟! فتجيبه الفتاة الصالحة الطاهرة جواب الواثق بربه المطمئن إلى فضله ورحمته: ﴿ قالت: هو من عند الله ﴾ فكأنها تقول لزكريا عليه وعليها السلام: لا تعجب ولا تستبعد، ثم أكدت مضمون كلامها بقولها: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [٣٧]: أي بغير تقدير، أو بغير استحقاق فضلاً منه سبحانه.

أثارت هذه الفتاة الصالحة العابدة، مشاعر الأبوة في قلب النبي الكريم، والرجل الكبير زكريا عليه السلام، فتوجه إلى الله تعالى بضراعة وخشوع، يسأله الذرية الصالحة الطيبة ﴿ هنالك ﴾ في محراب مريم، الفتاة الطاهرة العابدة ﴿ دعا زكريا ربه قال رب هبْ لي من لدنك ذريةً طيبةً إنك سميع الدعاء ﴾ [٣٨].

ثم كرر الدعاء والضراعة في جوف الليل، ونادى ربه نداءً خفياً: ﴿ قال رب إني وَهَن العظمُ مني، واشتعل الرأسُ شيباً، ولم أكنْ بدعائك رب شقياً. وإني خفتُ المواليَ من ورائي، وكانت امرأتي عاقراً فهبْ لي من لدنك ولياً. يرثني ويرثُ من آل يعقوبَ واجعلهُ ربّ رضِيّاً ﴾[١].

وهذا يدل على شدة وعمق تأثر نبي الله زكريا عليه السلام، بما رأى من صلاح مريم وإكرام الله تعالى لها. وقد استدل العلماء على مشروعية خلق الله تعالى خوارق العادات على أيدي الصالحين والصالحات، برزق الله مريم بدون وسائط وأسباب، وسموها الكرامات، بينما سموا الخوارق التي يجريها الله على أيدي الأنبياء بالمعجزات.

---

(١) مريم: الآيات ٤ ـ ٦.

البشـارة بيحيـى

استجاب الله تعالى لدعاء زكريا، وأرسل إليه الملائكة تحمل له البشارة: ﴿ فنادته الملائكةُ وهو قائمٌ يصلي في المحراب ﴾ في مكان عبادته ﴿ أَنَّ الله يبشرك بيحيـى ﴾: أي بولد سيولد لك، اسمه يحيـى ﴿ مُصدِّقاً بكلمةٍ من الله ﴾: أي مصدقاً بعيسى عليه السلام، وسمي عيسى بذلك لأن الله خلقه بكلمة ـ كن ـ من دون توسط أسباب، وكان يحيـى أول من آمن بعيسى، وصدق بنبوته ورسالته، أو يصدق بكلمة الله التي ينزلها الله على عيسى، والمراد بها الإنجيل ﴿ وسيداً ﴾ بالعلم والتقوى والعبادة ﴿ وحصوراً ﴾ عفيفاً عن النساء، مبالغاً في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القـدرة[1] ﴿ ونبياً من الصالحين ﴾ [٣٩] وهذا من تتمة البشارة وكمالها، أي ويكون أيضاً نبياً معدوداً في عدادهم.

غمرت الفرحة زكريا عليه السلام، وأقبل على ربه يسأله متعجباً من قدرته ومعظماً لها: ﴿ قال رب أنّى يكون لي غلام ﴾: أي كيف يكون لي غلام؟! ﴿ وقد بلغني الكبر ﴾: أي أدركني الكبر، وهو سن الشيخوخة والضعف ﴿ وامرأتي عاقر ﴾ عقيم لا تلد. وجـاءه الجواب من الله تعـالى: ﴿ قال كـذلك الله يفعـل مـا يشاء ﴾ [٤٠]، فهو سبحانه وحده الفعال لما يريد، فلا يعجزه شيء، ولا يتعاظمه أمر.

ثم سأل ربه أن يجعل له علامة يستدل بها على بدء حمل زوجته: ﴿ قال رب اجعلْ لي آيةً، قال آيتك ألاّ تُكلّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلا رمزاً ﴾: أي علامتك التي سألتها: أن يُحبس لسانُك عن الكلام، فلا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام، إلا بواسطة الإشارة والإيماء، ثم أمره ربه بكثرة ذكره وتسبيحه في هذه الحالة، شكراً لله تعالى على ما أنعم عليه وأعطاه ﴿ واذكرْ ربك كثيراً وسبّحْ بالعَشِيِّ ﴾ آخر النهار ﴿ والإبكار ﴾ [٤١] وأوله.

---

(١) روح المعاني ١٤٨/٣.

الاصطفاء الأول والثاني

جاءت ولادة يحيى عليه السلام من أم عاقر، ووالد شيخ كبير، مقدمة وإرهاصاً لمعجزة أكبر منها، وهي ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ولهذا قرن الله تعالى بينهما بالذكر في موضعين من القرآن الكريم، أولهما هنا في سورة آل عمران، وثانيهما في سورة مريم، فبعد الحديث عن البشارة بيحيى عادت الآيات إلى مريم العابدة الصالحة الطاهرة تخاطبها بقوله تعالى:

﴿ وإذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إن الله اصطفاكِ ﴾: أي اختارك بما خصك من أنواع الكرامة والفضل، مما سبق الحديث عنه، ﴿ وطهَّركِ ﴾ خَلْقاً وخُلُقاً عن كل ما يعيب النساء ويُستقذر منهن ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ [٤٢]، ويبدو أن الاصطفاء الثاني غير الأول، فالاصطفاء الثاني لتكون أماً لعيسى من غير أب، وجعلها وولدها عيسى آيةً للعالمين، وبهذه الميزة تمتاز مريم على جميع نساء العالمين، والقول به أولى من القول بالتكرار للتأكيد[1].

ثم كررت الملائكة نداء مريم، تأمرها أن تزيد من عبادتها وطاعتها لربها، توطئة للمهمة الكبيرة التي اختارها الله تعالى لها: ﴿ يا مريمُ اقنتي لربك ﴾: أي أديمي العبادة والطاعة لربك، ﴿ واسْجُدي واركعي مع الراكعين ﴾ [٤٣] ففي الصلاة عون من الله تعالى على القيام بالأعباء الثقيلة، والمهمات الجسيمة، قال تعالى: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين ﴾[2]. وأمر الله تعالى النبي ﷺ في أوائل نزول الوحي عليه أن يكثر من صلاة الليل، بسبب المهمة الثقيلة التي كلف بها: ﴿ يا أيها المزمِّل. قم الليل إلا قليلاً. نصفه أو انقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً. إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾[3].

تلك هي الصورة الكريمة الوضيئة لمريم الطاهرة العفيفة العذراء البتول[4] في

---

(١) روح المعاني ٣/١٥٥.
(٢) البقرة: الآية ٤٥.
(٣) المزمل: الآيات ١ ـ ٥.
(٤) المنقطعة للعبادة.

القرآن الكريم، حتى ذهب بعض علماء التفسير إلى القول بنبوتها، وهو ما ذهب إليه الإمام القرطبي في تفسيره، إلا أن جمهور العلماء لا يقرونه على ذلك، ولا يرون نبوتها، لأن النبوة لا تكون في النساء، ولأن الله تعالى وصفها بصفة الصديقة، في قوله تعالى: ﴿ ما المسيح ابنُ مريمَ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل، وأمه صدّيقة، كانا يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون ﴾(١).

وصورتها أيضاً في السنة الشريفة كريمة وضيئة، فعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»، وأشار الراوي إلى السماء والأرض(٢).

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «حسبُك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»(٣).

مصادر قصة مريم وعيسى

هذه الأخبار من المغيبات، التي لا سبيل للنبي ﷺ أن يعرفها لولا وحي الله تعالى الذي أنزل عليه، ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تخاطبه بقول الله تعالى: ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ فهي تؤكد صدق النبي ﷺ، وأن القرآن الكريم كلام الله تعالى أوحي به إلى النبي ﷺ.

فهذه الأخبار من المغيبات التي ما كان النبي ﷺ يعلمها، وما كان يعلمها أيضاً غيره، وحتى أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل لا يعلمونها، فالأناجيل التي في أيديهم اليوم لم تذكرها ولم تتحدث عنها، فليس في الأناجيل التي يتداولها النصارى أي ذكر لدعاء امرأة عمران ونذرها، واقتراع الأحبار على كفالتها ـ الذي

---

(١) المائدة: الآية ٧٥.

(٢) البخاري ومسلم والترمذي.

(٣) أحمد والترمذي وحسنه.

سيمر معنا في هذه الآية ـ وكذلك لم تذكر الأناجيل أيضاً كلام عيسى عليه السلام، وهو في المهد، مع أنه من المعجزات الكبرى التي أجراها الله على يديه، وفيها تبرئة مريم من افتراءات اليهود عليها واتهامهم لها بالزنا. ولا بد أن تكون الأناجيل التي كانت في عصر نزول القرآن كذلك خالية عن هذه الأخبار، وإلا ما عدها الله تعالى من أخبار الغيب في قوله: ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾.

ولا أدري ما الذي حمل صاحب التفسير الحديث أن يقول: ومنه ما لم يرد فيها ـ أي الأناجيل ـ مثل دعاء أم مريم، ونذرها ما في بطنها لله، والاقتراع على كفالة مريم، وكفالة زكريا لها، وعناية الله بها، وكلام المسيح في المهد، ونعتقد أن هذا مما كان يتداوله النصارى في عصر النبي وبيئته، استناداً إلى قراطيس كانت في أيديهم لم تصل إلينا[1].

وهو اعتقاد عجيب من مثل هذا الكاتب، ومستنكَر، ولا يقوم على أي أساس علمي، بل يدل على سذاجة صاحبه، فالتحريف دخل على الإنجيل قبل نزول القرآن الكريم بزمن طويل، فبعد رفع عيسى عليه السلام بزمن قليل ظهر بولس، وأدخل التحريف على عقيدة التوحيد، التي كان عيسى عليه السلام يدعو إليها، ولا شك أنه أدخل أيضاً التحريف على الإنجيل، ليتفق مع العقيدة الجديدة المحرفة التي دعا إليها.

ثم إن الامبراطور الروماني قسطنطين اضطهد النصارى الموحدين، ودعا أكثر من ألف من رجال الكنيسة إلى نيقية، حيث عقد المؤتمر المشهور الذي قرر عقيدة التثليث، وكان ذلك نتيجة لضياع كثير من نصوص الإنجيل الحقيقي، أو تحريفها، فلو كان الإنجيل الحقيقي موجوداً لما تمكنوا من إدخال هذه العقائد الباطلة على عقيدة التوحيد.

فليس ثمة مصدر يُعتمد عليه ويوثق به في قصة مريم وولدها عيسى عليهما السلام سوى مصدر واحد، هو القرآن الكريم، فاليهود اتهموا السيدة مريم بالزنا،

---

(١) انظر التفسير الحديث ١٠٣/٨.

ورموها بأقبح الصفات، بينما شهد الله تعالى في القرآن الكريم بعفتها وطهرها، وأنها كانت من العابدات الصالحات الصديقات، فلا ثقة بمروياتهم وما يأتي عن طريقهم.

والأناجيل التي يتداولها النصارى متعارضة ومتناقضة، بل إن في بعضها ما يؤكد افتراءات اليهود على السيدة مريم، فإنجيل متى وإنجيل لوقا عندما تحدثا عن نسب عيسى عليه السلام ذكرا أن عيسى هو ابن يوسف النجار، فهما وإن اختلفا في أسماء وأعداد أجداد المسيح، إلا أنهما متفقان على أن يوسف النجار هو آخرهم في سلسلة النسب لعيسى عليه السلام(1) فما معنى هذا؟! أليس فيه تأكيد لافتراءات اليهود على مريم، مع أن القرآن الكريم لم يذكر لمريم علاقة زواج بأي رجل، بينما الأناجيل ذكرت أن يوسف النجار كان خطيباً لمريم قبل ميلاد عيسى، وأنه بعد ذلك تزوجها، وولدت منه أولاداً آخرين كانوا بمثابة الإخوة لعيسى عليه السلام.

وهذا التباين بين ما ذكره القرآن الكريم عن مريم ونشأتها، وطهرها وعفتها، وبين ما في الأناجيل، يرد على مزاعم كثير من المستشرقين بأن قسماً كبيراً من أخبار القرآن الكريم مقتبس من كتب النصارى واليهود، كما يؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو المصدر الوحيد الموثق لحقيقة مريم وعيسى عليهما السلام، وحقيقة دين الإسلام الذي رضيه الله تعالى لكل الناس، ونادى به جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

إلقاء الأقلام

ثم ذكرت الآية حادثة كمثال على الغيب الذي أوحاه الله تعالى إلى النبي ﷺ، ما كان ﷺ يعلمها، ولا ذكْر لها في الأناجيل، وهي تبين المكانة الكبيرة لمريم وللبيت الذي ولدت فيه، فقال تعالى: ﴿ وما كنت لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيهم يكفُلُ مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ [٤٤]: أي ما كنت مع الأحبار

---

(1) انظر المسيح إنسان أم إله.

والرهبان عندما اختلفوا في كفالة مريم، كل واحد يريد أن يكفلها ويشرف بكفالتها ورعايتها، وذلك عندما جاءت إليهم امرأة عمران تقدمها نذيرة للعبادة والطاعة في الهيكل، وهذا يدل على أن مريم ولدت في بيت عُرف بينهم بالصلاح والعلم والعبادة، حتى قالوا: إن والدها عمران كان له مكانة دينية كبيرة عندهم.

واتفق الأحبار بعد الاختلاف على الاقتراع، ليظهر المستحق لشرف وبركة كفالتها ورعايتها، وألقوا أقلامهم في النهر، فحمل تيار الماء أقلامهم، وثبت بقدرة الله تعالى قلم زكريا عليه السلام، فعرفوا أن الله تعالى أراد أن يكون زكريا كافلاً لمريم وراعياً لها، وهو سر قوله تعالى - الذي مر معنا - ﴿ وكفّلها زكريا ﴾: أي جعل الله كفالتها لزكريا عليه السلام، فأمر كفالتها تم بمشيئة الله تعالى وحده، فهو سبحانه الذي أحاطها بعنايته ورعايته في كل مراحل حياتها، وأظهر لزكريا هذا الأمر الخارق للعادة تكريماً له ولهذه البنت النذيرة.

البشـــارة بعيســى

ثم جاءت البشارة بعيسى عليه السلام ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه ﴾: أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، وهي الكلمة التي يكوِّنه بها، فيقول جل وعلا: كن فيكون ﴿ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ والمسيح لقبه عليه السلام، وهو من الألقاب المشرفة له، ومعناه المبارك[1] ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ [٤٥]: أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا والآخرة.

﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾: أي يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له حال صغره معجزةً وآيةً، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه[2].

ولم تذكر الأناجيل معجزة كلامه في المهد، مع أنه من المعجزات الكبرى

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/٣٧.
(٢) انظر مختصر ابن كثير ١/٢٨٣.

لعيسى عليه السلام، وجاء كلامه في المهد دفاعاً عن أمه ضد افتراءات المفترين عليها، ولعل سبب إغفال الأناجيل لهذه المعجزة أن فيها إقراراً من عيسى عليه السلام بعبوديته لله تعالى: ﴿ قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾[1].

﴿ ومن الصالحين ﴾ [٤٦]: أي ويكون من الصالحين في قوله وعمله.

العـذراء البتـول

ولما سمعت مريم البشارة بعيسى عليه السلام، توجهت إلى ربها سبحانه تناجيه: ﴿ قالت رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾: أي كيف يوجد هذا الولد مني، وأنا لست بذات زوج، ويدل سؤالها على أنها ما كانت مخطوبة لأحد، خلافاً لما ذكرته الأناجيل التي يتداولها النصارى، وأنها أيضاً ما كانت تفكر في الزواج، وإلا لو كان في نيتها الزواج، أو كان لها خطيب اسمه يوسف النجار، ما سألت ربها سؤال المتعجب من قدرته تعالى، قال ابن كثير رحمه الله: تقول: كيف يوجد هذا الولد مني، وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً، حاشا لله[2]؟.

فهي العذراء البتول، التي أحصنت فرجها كما في قوله تعالى: ﴿ ومريمَ ابنةَ عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾[3]، وبقيت كذلك طول حياتها، وستكون زوجة للنبي ﷺ يوم القيامة في الجنة، ففي الحديث الشريف أنه ﷺ قال لخديجة: «أما شعرت أن الله عز وجل قد زوجني في الجنة مريم بنت عمران»[4].

ومر معنا أنها كانت تعيش في محراب عبادتها وحدها، ولا يدخل عليها أحد غير نبي الله زكريا، وأن الله تعالى قد كفاها مؤونة طلب الطعام والرزق، وأخبرنا

---

(١) مريم: الآية ٣٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٨٧.

(٣) التحريم: الآية ١٢.

(٤) رواه الطبراني عن أبي أمامة.

سبحانه أيضاً أنه جعل لها بعد ولادة عيسى عليه السلام مأوى، فيه كل ما يحتاجان إليه من الطعام والماء، فقال: ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آيةً وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومعين ﴾[1]، وبهذا نجاها الله تعالى من سماع كلمات الطعن بها والافتراء عليها، ومن نظرات المرتابين بها.

وما ذكر في الأناجيل أنها كانت مخطوبة ليوسف النجار من الناصرة، وأنه تزوجها بعد ذلك وأولدها أولاداً، غير صحيح ولا أصل له، وهو من الأكاذيب التي أدخلوها على الإنجيل. فالحق في القرآن، وفيه الفرقان الفاصل بين الإيمان والكفر، والحق والباطل.

﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ فمشيئته سبحانه طليقة لا تتقيد بنواميس وأسباب، فهو خالق النواميس والأسباب ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [٤٧] وقضى الله تعالى أن يخلق عيسى من أم بلا أب، فكان كما أراد الله تعالى وقضى.

المعجزات

وتابعت الآيات الكريمة تبين من خلال البشارة بعيسى عليه السلام ما أكرمه الله تعالى به من أنواع التكريم والنعم: ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ [٤٨]: أي يعلمه ربه الكتابة والقراءة، والحكمة في الأقوال والأفعال، كما يعلمه التوراة والإنجيل.

﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل ﴾: أي ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فرسالته عليه السلام خاصة ببني إسرائيل، يقول لهم فيها: ﴿ أني قد جئْتُكم بآيةٍ من ربكم ﴾: أي بمعجزة تدل على صحة نبوته وصدق رسالته، ﴿ أني أخلقُ لكم ﴾: أي أصنع لكم ﴿ من الطين كهيئةِ الطيرِ فأنفخُ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾: أي بأمره ومشيئته سبحانه وتعالى ﴿ وأُبرئُ الأكمه ﴾ الذي ولد وهو أعمى ﴿ والأبرص ﴾ المصاب بمرض البرص، وهو تغير في لون الجلد ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾:

(١) المؤمنون: الآية ٥٠.

أي بأمره ومشيئته أيضاً، فكل هذه المعجزات تمّت بقدرة الله تعالى ومشيئته، ولا استقلال لعيسى عليه السلام بها، فهي تدل على نبوته ورسالته، ولا تدل على ألوهيته كما زعم النصارى، وقد أجرى الله تعالى مثل هذه المعجزات على يد غيره من الأنبياء عليهم السلام، ولم يقل أحد بألوهيتهم، فالعصا كانت تتحول إلى ثعبان مبين على يد موسى عليه السلام، ومع ذلك لم يقل أحد من أهل الكتاب بألوهيته.

﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ فكان عليه السلام يخبرهم بما في بيوتهم من الطعام، وما أكلوا منه وما أخفوا وادخروا فيها.

﴿ إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [٤٩] ففي هذه المعجزات ما يكفي مريد الحق لمعرفة الحق والإيمان بنبوة عيسى عليه السلام ورسالته.

الصــراط المستقيــم

ومما تضمنته رسالة عيسى عليه السلام التصديق بالتوراة وأن الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام: ﴿ ومُصدِّقاً لما بين يديّ من التوراة ﴾: أي لما أنزل الله قبلي من التوراة، ﴿ ولأحل لكم بعضَ الذي حُرِّم عليكم ﴾ في شريعة التوراة، فقد شدد الله تعالى في شريعة التوراة بعض الأحكام على بني إسرائيل، بسبب عنادهم وعدم انقيادهم لأنبيائهم ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ شاهدة على صحة رسالتي، ﴿ فاتقوا الله وأطيعونِ ﴾ [٥٠] فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

﴿ إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ وحده لا شريك له ولا ولد ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ [٥١]: أي الإقرار بأن الله ربي وربكم، وإفراده وحده بالعبادة، هما الصراط المستقيم الذي يوصل إلى رحمته تعالى ورضوانه.

وانتقلت الآيات في سورة آل عمران مباشرة من الحديث عن البشارة بعيسى وعن نبوته ورسالته إلى بني إسرائيل، إلى آخر حلقات المواجهة بيـن عيسى عليه السـلام وبين بني إسرائيل، وتركت الآيات تفاصيل حمل مريم بعيسى، وولادتها له، ومواجهتها لقومها وهي تحمله، إلى موضع آخر من القرآن الكريم في سورة مريم. فهناك تتمة قصة مريم وعيسى عليهما السلام.

والملاحظ أن آيات سورة آل عمران ركزت على شخصية مريم، وعناية الله تعالى بها منذ أن كانت جنيناً في رحم أمها، كما بيّنت المعجزات التي أجراها الله على يد عيسى عليه السلام، ومضمون الرسالة التي أُرسل بها إلى بني إسرائيل.

وهذه الجوانب تتفق أولاً مع موضوع السورة الأساسي، وهو بيان أن القرآن الكريم هو الفرقان بين الحق والباطل، وهو المصدق للتوراة والإنجيل، فكل ما في التوراة والإنجيل مما يخالف القرآن الكريم لا صحة له ولا أصل، بل هو نتيجة التحريف والتغيير اللذين حدثا فيهما.

وتتفق أيضاً مع سبب نزول هذه الآيات، وهو احتجاج وفد نصارى نجران على مزاعمهم الباطلة في عيسى عليه السلام بالمعجزات التي أجراها الله تعالى على يديه بياناً لصحة نبوته ورسالته.

أنصـــار الله

﴿ فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ﴾: أي لما شعر عيسى عليه السلام بإصرار بني إسرائيل على الكفر برسالته والإعراض عن دعوته، وأنهم يمكرون به، ويريدون قتله، كما فعلوا بكثير من الأنبياء قبله، قال: من أنصاري في الدعوة إلى طاعة الله وعبادته وحده، وحال عيسى عليه السلام في هذا كحال النبي ﷺ عندما كان يطوف على الناس في مواسم الحج قبل الهجرة، ويقول: «من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»، حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، رضي الله عنهم وأرضاهم، وهكذا عيسى ابن مريم انتدب له طائفة من بني إسرائيل، فآمنوا به ووازروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه[1]، ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ [٥٢].

وسموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام والمخلصين في

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٨٥.

محبته وطاعته، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، انتدب الزبير رضي الله عنه، فقال ﷺ: «لكل نبي حواري وحواريَّ الزبير».

إلا أن نصر الحواريين لعيسى عليه السلام يختلف عن نصر الأنصار لرسول الله ﷺ، فالأنصار جاهدوا مع رسول الله ﷺ، وقاتلوا أعداءه، أما أنصار عيسى عليه السلام فما جاهدوا معه لأنه لم يأمر بقتال، وما عرف عنه عليه السلام ذلك، واستنصاره بالحواريين كان على نشر دعوته والإيمان به.

وقد يقول قائل: ولكنه سيقاتل الكفار ويجاهدهم عند نزوله إلى الأرض قبل قيام الساعة، كما جاء في الأحاديث النبوية الصحيحة المتواترة، وأقول: نعم سيقاتلهم ويقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، في ظل شريعة الإسلام والقرآن، فلا نبوة بعد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، ولا دين غير دين الإسلام المستمد من القرآن والسنة المطهرة. وهو ما سبق في قوله تعالى: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ وسيأتي أيضاً تأكيده في قوله تعالى: ﴿ ومن يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾.

ومعنى قول الحواريين: (واشهد بأنا مسلمون) أي: مستسلمون لله تعالى وحده منقادون لأمره وشرعه. وهو الإسلام الذي دعا إليه جميع الأنبياء عليهم السلام.

ثم بعد أن أعلنوا استجابتهم لدعوة عيسى عليه السلام، واستعدادهم للقيام بنصرته ومساعدته في تبليغ رسالته، توجهوا إلى الله تعالى بهذا الدعاء:

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ في الإنجيل ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ الذي أرسلت، وهو عيسى عليه السلام ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ [٥٣]، الذين شهدوا لله تعالى بالوحدانية، وشهدوا بصدق الأنبياء والمرسلين، أو اكتبنا من أمة النبي ﷺ خاتم الأنبياء، الذي بشر به عيسى عليه السلام، وأخذ على جميع الأنبياء الميثاق أن يؤمنوا به ويصدقوا برسالته إن أدركوا زمانه ـ كما سيأتي معنا ـ لأن أمته عليه الصلاة والسلام هي خير الأمم، ولها مقام الشهادة على الناس يوم القيامة.

قال تعالى يبين فضله على هذه الأمة المسلمة: ﴿ هو اجتباكم وما جعلَ

عليكم في الدين من حرج، ملةَ أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبلُ، وفي هذا ليكون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير ﴾[١]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناسِ ويكون الرسولُ عليكم شهيداً ﴾[٢].

وكذب عامة اليهود عيسى عليه السلام رغم كل المعجزات الحسية التي أيده الله تعالى بها، ومكروا به، وحاولوا قتله، كما فعلوا بكثير من الأنبياء قبله، فأحبط الله مكرهم، ونجاه من كيدهم، وأخبر سبحانه عن هذا في القرآن الكريم بقوله: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [٥٤] لأنه سبحانه يحبط مكرهم، ويبطل كيدهم.

الرفــع إلــى السمــاء

ثم بيّن سبحانه كيف نجاه من كيدهم ومكرهم برفعه إلى السماء: ﴿ إذ قال الله: يا عيسى إني مُتَوفِّيك ورافعك إليّ ﴾: أي إني متوفيك وفاة النوم ورافعك إليّ، فالوفاة في الآية تعني النوم، فهو كقوله تعالى: ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جَرَحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ﴾ الآية[٣]، وقوله أيضاً: ﴿ الله يتوفى الأنفسُ حين موتها، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموتَ ويرسلُ الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤]، وأصل التوفي: أخذ الشيء وافياً، ولهذا فسر بعض علماء التفسير معنى (متوفيك) قابضك ورافعك، قال القرطبي: قيل هذا يدل على أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه، وليس بشيء، لأن الأخبار تظاهرت برفعه وأنه في السماء حي، وأنه ينزل ويقتل الدجال، وإنما المعنى: فلما رفعتني إلى السماء[٥].

(١) الحج: الآية ٧٨. وانظر في: الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج.
(٢) البقرة: الآية ١٤٣.
(٣) الأنعام: الآية ٦٠.
(٤) الزمر: الآية ٤٢.
(٥) تفسير القرطبي ٦/٣٦٦.

وقال ابن كثير رحمه الله: وقال الأكثرون: المراد بالوفاة ها هنا النوم، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾، ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا»[1].

وجمهور العلماء على أنه عليه السلام لم يمت، وأنه حي في السماء، وأن اليهود لم يقتلوه ولم يصلبوه، قال تعالى: ﴿ وبكفرِهم وقولِهم على مريمَ بهتاناً عظيماً. وقولهم إنا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريم رسولَ الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً. وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنُنّ به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾[2].

ولو كان مراد الله من الوفاة الموت المُنهي للحياة ما رفعه إلى السماء، لأنه قدّر رجوع الأجساد إلى الأرض بالموت، وبعثهم يوم القيامة منها. فموت عيسى يكون في الأرض بعد نزوله من السماء.

هذا هو الحق الذي يجب اعتقاده في موضوع عيسى عليه السلام، والآية الأخيرة تشير إلى حياته وأنه لم يمت بعد، وقد صرحت الأحاديث الشريفة الكثيرة بأنه سينزل قبل قيام الساعة، ويقتل الدجال، ويكسر الصليب، ولا يبقى أحد من كفار أهل الكتاب إلا يؤمن به الإيمان الصحيح بأنه عبد الله ورسوله، وقد بلغت الأحاديث التي أخبرت عن نزوله مبلغ التواتر لكثرتها، حتى إن بعض العلماء أفردها في التأليف[3]. منها ما رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم عليه السلام حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٨٦.

(٢) النساء: الآيات ١٥٦ ـ ١٥٩.

(٣) من آخر ما ألف فيها كتاب: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، للمحدث الهندي محمد أنور الكشميري رحمه الله، وقد زاد عدد الأحاديث التي ذكرها على خمسين حديثاً، وذكر معها سبعين أثراً عن الصحابة.

قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾.

والقول بأن أحاديث نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، أخبار آحاد لا تفيد العلم القطعي، قول باطل يدل على جهل قائليه بالسنة النبوية، وهو ما ذهب إليه بعض المتأخرين من المفسرين، قال في التفسير الحديث: ولرشيد رضا ـ وهو صاحب تفسير المنار ـ في صدد ذلك كلام طويل يفيد أن التوفي بمعنى الموت، والرفع بمعنى التكريم، وأن الأحاديث النبوية هي أحاديث آحاد في أمور غيبية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي المشهور، وأنّ نفي صلبه وقتله وكونه شبه عليهم لا ينفي موته موْتةً عادية... ولا تخلو هذه الأقوال من وجاهة(١).

ولكن هذه الأقوال أمام التحقيق العلمي لا وجاهة فيها، بل هي محض الخطأ والضلال، لأن الأصل أن يحمل الكلام على حقيقته، والآية تصرح بالرفع لا بالتكريم، والأحاديث الشريفة تؤكد المعنى الحقيقي، فما الذي يجعلنا ننصرف عن المعنى الحقيقي ونؤول الرفع بالتكريم، ونترك الأخذ بالأحاديث الشريفة الصحيحة المتواترة؟ إن ذلك محض الضلال والخطأ.

ثم أكد سبحانه رفع عيسى إلى السماء حياً بقوله: ﴿ ومطهِّرُك من الذين كفروا ﴾ أي برفعي إيّاك إلى السماء(٢).

أتباع عيسى عليه السلام

وأخبره تعالى بتأييده لأتباعه حتى تكون لهم الغلبة والظهور على أعدائهم، فقال: ﴿وجاعلُ الذين اتبعوكَ فوق الذينَ كفروا إلى يوم القيامة ﴾ وهم المؤمنون بأن عيسى عليه السلام عبد الله تعالى ونبي من أنبيائه، هم المسلمون الموحدون، الذين ينزهون الله تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

قدر الله تعالى أن تكون لهم الغلبة على أعدائهم من الكفار كلما التقوا بهم،

---

(١) انظر تفسير الحديث ٨/١٠٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٨٦.

في ميدان المناظرة بالحجة والبرهان، أو في ميدان القتال بالسيف والسنان، ما داموا مؤمنين بالله حق الإيمان ومتمسكين بدينه وملتزمين شريعته، كما قال سبحانه: ﴿ولينصـرَنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[1]، وشواهد التاريخ القريب والبعيد أكبر دليل على ذلك.

فلا دليل ولا برهان لمن يزحزح عيسى عن مقام عبوديته لله تعالى، ويصفه ببعض صفات الألوهية، أو يصف الله تعالى بأن له ولداً أو صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. لقد ناظر النبي ﷺ وفد نصارى نجران وأقام عليهم الحجة، ثم دعاهم إلى المباهلة، كما سيأتي فنكصوا على أعقابهم خائبين، وشهدت العصور المتأخرة مناظرات ومجادلات بين المسلمين الموحدين وبين الكافرين، فكان النصر والفوز للموحدين المسلمين أتباع عيسى عليه السلام.

ومن أشهرها المناظرة التي حدثت في الهند، في أثناء الاحتلال البريطاني، بين العالم المسلم رحمة الله الكيرواني ١٢٣٣ ـ ١٣٠٨ هـ وبين القس البريطاني المشهور فنـدر ومعه القس وليم كلين، حول خمس قضايا هي:

١ ـ التحريف في الكتاب المقدس.
٢ ـ وقوع النسخ.
٣ ـ التثليـث.
٤ ـ نبوة محمد ﷺ.
٥ ـ صدق القرآن الكريم.

وأسفرت عن اعتراف فندر بوقوع التحريف في ثمانية مواضع من الإنجيل، وانقطع عن متابعة المناظرة في اليوم الثالث[2].

قال ابن كثير رحمه الله: فلما بعث محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه

---

(١) الحج: الآية ٤٠.
(٢) انظر مقدمة كتاب إظهارالحق التي كتبها أبو الحسن الندوي.

الأرض، . . . فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واجتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر، وسلبوهما كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ الآية[1]، فلهذا لمّا كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً سلبوا النصارى بلاد الشام، وألجؤوهم إلى الروم. . ولا يزال الإسلام فوقهم إلى يوم القيامة[2]، ما داموا متمسكين بدينهم ومطبقين أحكام شريعته، وما أُتي المسلمون إلا من إعراضهم عن شريعة ربهم، وتركهم سنة نبيهم ﷺ.

﴿ ثم إليّ مرجعكم فأحكمُ بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ [٥٥]، وحينئذ يكون الحساب والجزاء ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبُهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ [٥٦]، وهو ما حدث لمن كفر بعيسى عليه السلام من اليهود، أو غلا فيه من النصارى، وستكون الغلبة عليهم للمسلمين إن شاء الله في العصر الحاضر، إذا عاد المسلمون إلى دينهم وطبقوا شريعة ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام، والمعركة مستمرة ولم تنته بعد، والأيام دول، وهو سبحانه المعز والمذل، والمعطي والمانع ـ كما مر معنا في قوله: ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعز من تشاء، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ ـ وسيأتي معنا في آخر السورة قوله تعالى: ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾.

﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورَهم ﴾ في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالثواب الجزيل والجنة، ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ [٥٧].

---

(١) النور: الآية ٥٥.

(٢) انظر المختصر لتفسير ابن كثير ١/٢٨٦.

المباهلة

بهذا أنهت الآيات الكريمة قصة مريم وولدها عيسى عليهما السلام، والتفتت بعد ذلك إلى النبي ﷺ تخاطبه بقوله تعالى: ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ [٥٨]، فهو الفرقان المميز بين الحق والباطل، أنزله الله تعالى عليك، وأظهر فيه حقيقة عيسى عليه السلام، وأزال ركام الأباطيل والأكاذيب التي نسجت حوله، ﴿ إن مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ في الخلق بدون تقدم أسباب، ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [٥٩]، فكما خلق الله تعالى آدم، خلق عيسى عليهما السلام، بل إن خلق آدم من غير أب ولا أم أعجب من خلق عيسى من أم بلا أب.

وهكذا ظهر الحق فلا شك ولا افتراء ﴿ الحق من ربك فلا تكن من الممتَرين﴾ [٦٠]: أي الشاكين، ولا يكون من النبي ﷺ أدنى افتراء وشك، وجاء الخطاب له على سبيل الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت[١] وبيان خطورة الشك في هذه الحقائق الناصعة الواضحة، فلا يعذر من يعتريه شك في عبودية عيسى عليه السلام لربه وصدق نبوته.

﴿ فمن حاجك فيه ﴾: أي جادلك في شأن عيسى عليه السلام ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ الذي سبق بيانه في السورة، فهو حقّ واضح أفاد العلم القطعي بأن عيسى عليه السلام عبد لله تعالى، ونبي مرسل يدعو إلى عبادةالله تعالى وحده، ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسَنا وأنفسكم ﴾: أي نحضرهم ﴿ ثم نبتهل ﴾: أي نتباهل، ويدعو كل فريق الله تعالى، ويسأله أن ينزل لعنته على الكاذبين ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ [٦١] في أمر عيسى عليه السلام.

وجه النبي ﷺ دعوة المباهلة إلى وفد نصارى نجران فأبوا الاستجابة لها، ورضوا بدفع الجزية، وظلوا متمسكين بعقائدهم الفاسدة، ففي صحيح البخاري

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢/٤٦.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لو كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام، قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة».

ثم عقب الله تعالى على قصة عيسى وأمه بقوله الكريم: ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾: أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد ﷺ، في شأن عيسى وأمه، هو الحق الثابت ﴿ وما من إلّه إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾ [٦٢].

﴿ فإن تولوا ﴾: أي أعرضوا عن هذا الحق ﴿ فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ [٦٣] وهذا يدل على أن الإعراض عن الحق يؤدي إلى الفساد في الاعتقاد والسلوك والأخلاق.

كلمة العدل

وأمر الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة حق وعدل وإنصاف ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ﴾: أي كلمة عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها، وهي ﴿ ألا نعبدَ إلا الله ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والولد ﴿ ولا نشركَ به شيئاً ﴾ في العبادة والطاعة، أو في صفة من صفات كماله جل وعلا ﴿ ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾: أي لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله تعالى، فالحكم لله تعالى وحده، والتشريع له جل جلاله، فلا حلال إلا ما أحله الله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلّهاً واحداً لا إلّه إلا هو سبحانه عما

يشركون ﴾[1]، ولما كان عدي بن حاتم نصرانياً ودخل على النبي ﷺ وهو يتلو هذه الآية، فقال معترضاً: إنهم لم يعبدوهم، فقال ﷺ: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»[2].

وقد عودتنا الآيات الكريمة أن يكون موقف المسلمين عند إعراض الكافرين عن دينهم أن يعلنوا إسلامهم لله تعالى، واستسلامهم لشرعه ﴿ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [٦٤]، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾ الآية.

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ ذكر هذه الآية، في كتابه الذي أرسله إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام، وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[3]، و﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ الآية[4].

الإسلام دين إبراهيم عليه السلام

وبعد أن بيّنت الآيات حقيقة عيسى عليه السلام وأمه، رجعت إلى ما قبل عيسى عليه السلام بقرون طويلة، إلى والد الأنبياء إبراهيم عليه السلام لتبين حقيقة الدين الذي كان يدعو إليه، وأنه دين الإسلام لله تعالى وحده، لأن النصارى يدعون أن إبراهيم كان نصرانياً، واليهود يدعون أنه كان يهودياً، فأنزل الله قوله الكريم فرقاناً بين الحق والباطل: ﴿ يا أهل الكتاب لم تُحاجُّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ [٦٥].

---

(١) التوبة: الآية ٣١.

(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(٣) عامة الناس من رعاياك.

(٤) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

وقد يقول قائل منهم: نحن نعلم أن التوراة والإنجيل أنزلا بعد إبراهيم بزمن طويل، لكن هذا لا يمنع أن يذكر الله تعالى فيهما الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام؟. والجواب أن الله تعالى لم يذكر في التوراة والإنجيل دين إبراهيم عليه السلام، بينما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم في آيات كثيرة، وذكر أنه عليه السلام كان موحداً مسلماً لله تعالى حنيفاً عن كل ملل الشرك والكفر، بل أُمر النبي ﷺ باتباع ملته، كما في قوله تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين. شاكراً لأنْعُمِه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾(1).

ولهذا قال تعالى لهم على سبيل التبكيت والتقريع: ﴿ هـا أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام، فيما تدعونه بشأنهما ﴿ فلم تُحاجُّون فيما ليس لكم به علم ﴾ كإبراهيم عليه السلام ﴿ والله يعلم ﴾ ما أنزل في كتبه ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ [٦٦].

فالإسلام هو دين إبراهيم، الدين القائم على الاستسلام الكامل لله وتنزيهه سبحانه عن الشريك والصاحبة والولد: ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً ﴾ مائلاً عن كل ملل الشرك والكفر ﴿ مسلماً ﴾ لله تعالى وحده ﴿ وما كان من المشركين ﴾ [٦٧].

والمسلمون أحق الناس بإبراهيم عليه السلام، وعلى رأسهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ: ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتبعوه ﴾ في الإعراض عن الشرك والكفر، والاستسلام لله تعالى وحده ﴿ وهذا النبي ﴾ محمد ﷺ الـداعي إلى التوحيد الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام ﴿ والذين آمنوا ﴾ من هذه الأمة المسلمة الموحدة ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ [٦٨] بالله الواحد الأحد وبرسالة جميع الأنبياء والمرسلين.

---

(١) النحل: الآيات ١٢٠ ـ ١٢٣.

الفَصل الثالث
التوراة واليهود

تحـذير

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة كان فيها عدد كبير من اليهود، أعرض أكثرهم عن دعوة النبي ﷺ، ومكروا به وألبوا المشركين عليه، وحاولوا قتله، مع أنهم يعلمون أنه النبي الذي بشر به أنبياء بني إسرائيل، وذُكرت نعوته وصفاته في التوراة.

وقبل أن توجه الآيات الخطاب إليهم حذرت المسلمين من مكرهم وكيدهم، قال تعالى: ﴿ ودَّتْ طائفة من أهل الكتاب ﴾ وهم اليهود ﴿ لو يضلونكم ﴾: أي يبعدونكم عن الإسلام، قيل: إنها نزلت في اليهود حين دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً من الصحابة إلى اليهودية ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾: أي وما يعود وبال ذلك إلا على أنفسهم، وهذا يدل على قوة إيمان المخاطبين في الآية، وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم[1]. ﴿ وما يشعرون ﴾ [٦٩] بأن ضرر الإضلال يعود عليهم.

أهـل الكتـاب

ثم وجهت الآيات الخطاب إليهم مباشرة، بقوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ ونداء القرآن الكريم لهم بهذه الصفة يدل على ميزة كبرى يمتازون بها على غيرهم، فهم يملكون بالكتاب الذي أنزل عليهم الدلائل والبراهين الدالة على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته أكثر من غيرهم، ولهذا أنكر الله عليهم كفرهم وإعراضهم عن الإيمان فقال: ﴿ لِمَ تكفرون بآيات الله ﴾ التي أنزلها الله في التوراة والدالة

(١) تفسير أبي السعود ٢/٤٩.

على نبوته عليه الصلاة والسلام: ﴿وأنتم تشهدون﴾ [٧٠]: أي وأنتم تشاهدون هذه الدلائل وتعرفونها.

وعلى الرغم من التغيير والتبديل في التوراة، وخاصة ما يتعلق بصفات النبي ﷺ، فلا يزال فيها بعض الإشارات إلى النبي ﷺ، حتى إن أحد قسس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية البروفسور ديفيد بنجامين كلداني، ألف كتاباً في هذا الموضوع، عنوانه: محمد في الكتاب المقدس، وقد أسلم بعد ذلك، وتسمى باسم عبد الأحد داود، وقد ذكر فيه استناداً إلى خبرته باللغات الآرامية والعبرانية والسريانية القديمة، كثيراً من النبوءات على لسان الأنبياء، لا تنطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ، منها:

ما في الإصحاح الثاني من سفر حجّي: وسوف أزلزل كل الأمم وسوف يأتي حِمداً Himade لكل الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد[١].

ومنها ما في الإصحاح التاسع والأربعين في سفر التكوين: لا يزول صولجان من يهوذا، أو مشرّع من بين قدميه حتى يأتي (شَيْلُوه) ويكون له خضوع الشعوب[٢].

ورأى المؤلف أن هذه النبوءة لا تنطبق على عيسى عليه السلام، لأنه لم يترك قانوناً مكتوباً، ولم يحلم أبداً بصولجان ملكي، بل إنه نصح اليهود أن يكونوا مخلصين لقيصر وأن يدفعوا له الجزية... وجاء محمد ﷺ بالقوة العسكرية، والقرآن يحل محل الصولجان اليهودي القديم البالي، والشريعة القديمة غير العملية[٣].

ثم يؤكد المؤلف أن معنى شَيْلُوه، شيلوا ح، وتكون عندئذ مرادفة تماماً لرسول ياه، وهو نفس اللقب المعطى لمحمد وحده (رسول الله)[٤].

ثم ذكر للكلمة معنى ثانياً ذا أهمية لصالح محمد ﷺ وهو: هادىء، مسالم، أمين، وديع، وكان ﷺ يلقب بالأمين[٥].

---

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) انظر محمد في الكتاب المقدس.

ويرى المؤلف أيضاً أن كلمة (برناشا) الواردة في نبوءة النبي دانيال، ومعناها ابن الإنسان، الذي يحطم الوحش الرابع، والمراد به الامبراطورية الرومانية، لا ينطبق إلا على محمد ﷺ(١).

كل ذلك يبين لنا سر نداء الله تعالى لهم ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ فهم يعلمون مدلول هذه الكلمة، وما فيها من إلزام قاطع لهم بالإيمان بالنبي ﷺ، ولهذا تابعت الآيات الكريمة تناديهم بهذا النداء: ﴿ يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل ﴾: أي تسترونه به، أو تخلطونه به، ﴿ وتكتمون الحق ﴾ وهو نبـوة محمد ﷺ، ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ [٧١] أنه نبي الله حقاً.

من خداع اليهود ومكرهم

ثم كشفت الآيات الكريمة بعض خداعهم ومكرهم: ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمِنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجهَ النهار واكفروا آخره ﴾ فهي مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، فاتفقوا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين(٢)، ولهذا قالوا: ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ [٧٢] عن دينهم.

وقد قطع النبي ﷺ على أمثالهم طريق الإيمان خداعاً ومكراً، عندما شرع ﷺ قتل المرتد عن الإسلام، فقال: «من بدل دينه فاقتلوه»(٣)، وصان عليه الصلاة والسلام بهذا حرمة الإسلام، ومنع من اتخاذ الدخول في الإسلام لـلاستهزاء والاحتيال.

وكانوا يتواصون فيما بينهم قائلين: ﴿ ولاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ وهذا

---

(١) المرجع نفسه، فصل: محمد ابن الإنسان.
(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٩١.
(٣) رواه البخاري وأصحاب السنن.

يدل على شدة تعصبهم لباطلهم، وأنهم لا يثقون إلا ببعضهم، فاليهودي لا يطمئن إلا ليهودي مثله.

ورد سبحانه عليهم بقوله: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ فالهداية بيده سبحانه، فلا تأثير لمكرهم وخداعهم، ثم عادت الآية تحكي تتمة كلامهم لبعضهم: ﴿أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم أو يُحاجُّوكم عند ربكم﴾: أي لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، حتى لا يتعلموه منكم ويتخذوه حجة عليكم في الدنيا والآخرة.

وعادت الآية تنقض قولهم هذا مرة ثانية بقوله تعالى: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ فهو المعطي والمانع، يعطيه من يشاء، ويمنعه عمن يشاء، وفضله سبحانه يسع جميع خلقه، كما أنّ علمه سبحانه وسع كل شيء، ﴿والله واسع عليم﴾ [٧٣] ﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [٧٤]. وقد خص الله تعالى هذه الأمة المسلمة برحمته العظمى ومنته الكبرى، وهي بعثة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام فيهم، وقد شاء سبحانه أن يجعل الرسالة والكتاب في غير أهل الكتاب بعدما خاسوا بعهدهم مع الله، ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل.

استحلالهم لأموال الناس

وتابعت الآيات الكريمة تكشف أكاذيبهم وتفضح قبائحهم: ﴿ومن أهل الكتاب مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّهِ إليك﴾ وهذا تقرير للحقيقة والوقائع، فبعضهم أصحاب أمانة وتقوى، يحفظون الأمانة ويؤدونها لأصحابها ولو كانت مالاً كثيراً وهؤلاء قليل فيهم، وأما أكثرهم فيستحلون أكل أموال الناس بأي وسيلة كما قال تعالى: ﴿ومنهم من إنْ تأمنه بدينار لا يُؤَدِّهِ إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وهذا صنيعه في الدينار، فما فوقه أولى ألا يؤديه إلى صاحبه ومستحقه.

فللمال مكانة كبيرة في قلوبهم، وحبهم له حملهم على الكذب على الله تعالى فقالوا: ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾: أي ليس علينا في ديننا حرج ومسؤولية في أكل أموال غير اليهود، حيث إن اليهود يعدون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وأنه سبحانه سلطهم على أموال الأرض وخيراتها، قال الرابي ألبو: سلط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم، وجاء في وصايا التوراة: لا تسرق مال القريب. وقال علماء التلمود[١] مفسرين هذه الوصية: إن الأمي ليس بقريب، وإن موسى لم يكتب في الوصية: «لا تسرق مال الأمي» فسلب ماله لم يكن مخالفاً للوصايا[٢].

وقال ممياند مفسراً لقوله تعالى «لا تسرق»: إن السرقة غير جائزة من الإنسان أي من اليهود، أما الخارجون عن دين اليهود فسرقتهم جائزة[٣]. وقريب اليهودي هو اليهودي فقط، وباقي الناس حيوانات في صورة إنسان، هم حمير وكلاب وخنازير، يلزم بغضهم سراً[٤].

تلك بعض أقوال حاخاماتهم في التلمود. وقال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [٧٥] أنهم يكذبون عليه سبحانه، ثم بيّن سبحانه أن أحبابه هم أهل الأمانة والوفاء والتقوى ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ [٧٦].

أيمـانهــم الكـاذبــة

ومن افتراءاتهم أن أحبارهم أحلوا لهم الحلف زوراً وكذباً في تعاملهم مع غير اليهود، وقد جاء في التلمود: لا يعد اليمين التي يقسم بها اليهودي في معاملاته مع باقي الشعوب يميناً، لأنه كأنه أقسم لحيوان، والقسم لحيوان لا يعد يميناً... ولا

(١) معناه كتاب تعليم ديانة وآداب اليهود، وهو عبارة عن حـواشٍ وشروح للتوراة وتكملة للشريعة على حسب ما يدعون. وهو عندهم أفضل من التوراة لأنهم يعتقدون بعصمة الحاخامات عن الخطأ وأن كل ما قالوه جزء من شريعة موسى. انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود.

(٢) (٣) (٤) الكنز المرصود في قواعد التلمود.

يخطىء اليهودي إذا حول اليمين لوجهة أخرى، وقد حلف الرابي (يوحنان) يوماً لامرأة على ألا يبوح بسرها قائلاً لها: إني لا أبوح بهذا السر أمام الله، ففهمت المرأة أن الحاخام يحلف لها بالله على كتمان السر مطلقاً، مع أنه حوله بالكيفية الآتية: أحلف أن لا أبوح بهذا السر أمام الله، ولكني سأفشيه لبني إسرائيل[1].

ولهذا قال تعالى في سياق الآيات التي تكشف مخازيهم وأكاذيبهم: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيْمانهم ثمناً قليلاً﴾ فهو قليل مهما كان كثيراً بسبب جرأتهم على استحلال اسم الله تعالى ﴿ أولئك لا خَلَاقَ لهم في الآخرة ﴾: أي لا نصيب لهم فيها، ولاحظ لهم منها ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ لأنهم محجوبون عنه سبحانه، ﴿ ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ نظر رحمة وإحسان ﴿ ولا يزكيهم ﴾ من الذنوب والآثام، فلا يغفرها لهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ [٧٧].

وفي الحديث الشريف عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قلت: يا رسول الله من هم؟ خسروا وخابوا، قال - وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات -: المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان»[2].

تحريف الكتاب

ثم دمغتهم الآيات بالجريمة الكبرى، جريمة تحريف كتاب الله تعالى، الذي أنزل على نبيهم موسى عليه السلام، وهو التوراة، بقوله تعالى: ﴿ وإن منهم لفريقاً يَلْوُون ألسنتهم بالكتاب ﴾ وهذا الفريق هم الأحبار الذين كانوا مؤتمنين على حفظ التوراة، فكانوا يُميلون ألسنتهم عن المنزل إلى المحرف[3] ﴿ لتحسبوه من الكتاب ﴾ المنزل ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ المنزل، بل هو من افترائهم وكذبهم

---

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن، والمسبل معناه المتكبر، والمنان: أي بالصدقة.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ٥١.

﴿ ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [٧٨] أنهم يكذبون على الله تعالى.

بيّن البروفسور ديفيد كلداني صورة من صور تحريفهم للتوراة فقال:

لقد كان اليهود دائماً وأبداً على غيرة من إسماعيل، لأنهم يعرفون جيداً بأنه كان يجسد ويمثل «العهد» وبختانه أُبرم وخُتم هذا العهد، وإنه بدافع من ذلك الحقد وتلك الضغينة قام النُّساخُ وفقهاء الشريعة عند اليهود بتحريف وإفساد الكثير من صفحات كتبهم المقدسة، فشطبوا اسم إسماعيل من العبارات: الثانية والسادسة والسابعة من الفصل الثاني والعشرين في كتاب سفر التكوين، ووضعوا اسم إسحاق بدلاً منه، وقاموا أيضاً بحذف الوصف الخاص بإسماعيل: ولدك الوحيد، وذلك إنكاراً لوجود إسماعيل(١).

وقد امتلأت التوراة نتيجة التحريف بالافتراءات والأكاذيب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فوصفوهم بأقبح الصفات، ونسبوا إليهم أفحش الأعمال، وهم منها براء، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

فهم الأطهار الأخيار الذين اختارهم الله تعالى من صفوة خلقه لنبوته وحمل رسالته، انظر كيف نزه الله ساحتهم عن الكذب، وشهد بصدقهم وأمانتهم، بقوله تعالى: ﴿ ما كان لبشر أن يؤتِيَه الله الكتابَ والحكمَ والنبوة ثم يقولَ للناسِ كونوا عباداً لي من دون الله ﴾: أي اعبدوني من دون الله تعالى، فالأنبياء عليهم السلام لا يقولون مثل هذا القول أبداً، ولكنهم يدعون الناس إلى عبادة الله تعالى وحده ﴿ ولكن كونوا ربانيين ﴾: أي كونوا شديدي التمسك بعبادة ربكم وطاعته ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ [٧٩]: أي بسبب كونكم عالمين بالكتاب ومعلمين له.

ففائدة العلم بالعمل به، والعالم الذي لا يعمل بعلمه أقبح من الجاهل، ولهذا كان ﷺ يستعيذ من علم لا ينفع. فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن

---

(١) محمد في الكتاب المقدس.

رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(1).

﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ فالرسول لا يأمر بعبادة أحد غير الله تعالى، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، ومن دعا إلى عبادة غير الله تعالى، فهو داعية كفر وشرك، والرسل والأنبياء منزهون عن ذلك ﴿ أيأمُركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [٨٠] وحاشا لنبي أن يفعل ذلك، والمراد من الاستفهام الإنكار والنفي.

فالآيات الكريمة تشهد ببراءة الأنبياء والمرسلين عن الافتراءات والأكاذيب التي نسبها أهل الكتاب إليهم، وخصوصاً ما نسب إلى عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ميثـاق النبيِّين

ومن الأمانات التي ائتمن الله تعالى عليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأخذ عليهم الميثاق من أجل حفظها وأدائها، ما أخبر عنه في قوله الكريم: ﴿ وإذْ أخذَ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾: أي مهما أعطى الله تعالى أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ﴿ ثم جاءَكم رسول مُصَدِّق لما معكم لَتُؤْمِنُنَّ به ولتنْصُرُنَّه ﴾ قال علي وابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث الله محمداً ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ، وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه(2).

وهذا يدل على أن رسالة القرآن الكريم، وهي الإسلام، التي دعا إليها النبي ﷺ، أكمل الرسالات وأتمها، كما يدل على فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء

---

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٩٦.

عليهم السلام، فهو إمامهم وخاتمهم، قال العلامة الألوسي رحمه الله: وأخذ الميثاق من النبيين له ﷺ، مع علمه سبحانه أنهم لا يدركون وقته، فيه من التعظيم له ﷺ والتفخيم ورفعة الشأن والتنويه بالذكر، ما لا ينبغي إلا لذلك الجناب(١).

وقال ابن كثير رحمه الله: فهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد، لكان هو الواجب الطاعة، المقدم على الأنبياء كلهم(٢).

﴿ قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾: أي عهدي ﴿ قالوا أقرَرنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [٨١] على إقراركم، فهو ميثاق جليل وخطير، الله جل جلاله شاهد عليه.

﴿ فمن تولى بعد ذلك ﴾ عن هذا الميثاق ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ [٨٢] الخارجون عن طاعة الله تعالى، ولهذا كان ﷺ يقول: «لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني»(٣) ويقول أيضاً: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار»(٤) فمسؤولية أهل الكتاب عن النبي ﷺ جسيمة وخطيرة.

الاستسلام لله تعالى

وإعراضهم عن التصديق برسالة النبي ﷺ، إعراض عن دين الله تعالى الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾: أي أيطلبون ديناً غير دين الله تعالى، وهو دين الإسلام الذي دعا إليه النبي ﷺ ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾: أي ولله سبحانه استسلم وخضع من في السموات والأرض، لأنهم تحت التسخير والقهر، وفي قبضة قدرته ومشيئته سبحانه، فمن لم يستسلم لأمره التكليفي، انقاد وخضع لأمره التكويني القدري،

(١) انظر روح المعاني ٢/٢١٠.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٩٦.
(٣) رواه أبو يعلى في مسنده.
(٤) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

كما قال سبحانه: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾[1]، فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالف ولا يُمانع[2].

﴿وإليه يرجعون﴾ [٨٣] ومرجعهم ومصيرهم بعد الموت إلى أمره وحكمه جل جلاله.

الإيمان بجميع الأنبياء

ولا بد مع الاستسلام لله تعالى وحده من التصديق بنبوة جميع الأنبياء عليهم السلام، ولهذا أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة في وجوه أهل الكتاب الذين يفرقون بين الأنبياء ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض: ﴿قل آمنا بالله﴾ الواحد الأحد، المتصف بكل صفات الجلال والكمال، والمنزه عن الشريك والصاحبة والولد ﴿وما أنزل علينا﴾ في القرآن الكريم ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾ في التوراة والإنجيل ﴿والنبيون من ربهم﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء عليهم السلام ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [٨٤] مستسلمون له سبحانه وحده.

فالمسلمون يؤمنون بكل نبي أُرسل، وبكل كتاب أُنزل ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[3] هذا هو الإسلام الذي دعا إليه خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، وأنزله الله تعالى في القرآن، ولا يقبل الله تعالى ديناً غيره ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ في الدنيا، وهو رد عليه مهما كان المصدر الذي يدعيه لهذا الدين ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [٨٥] بسبب إعراضه عن دين الإسلام.

---

(١) الرعد: الآية ١٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٩٧.

(٣) البقرة: الآية ٢٨٥.

كتمان الحق

ثم بينت الآيات شدة هذه الخسارة بالنسبة للمرتدين عن الإسلام، وترد بهذا البيان على اليهود الذين كانوا يؤمنون أول النهار ويكفرون آخره، كما مر معنا، وترد عليهم أيضاً لأنهم كانوا يؤمنون بالنبي قبل أن يبعث، فلما بعث من غيرهم كفروا به، ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ﴾ والمراد من الاستفهام النفي، أي: لا يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم، وهم أهل الكتاب الذين رأوا نعت النبي ﷺ في كتابهم، وأقروا وشهدوا بأنه حق، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم(1) ﴿ وشهدوا أن الرسول حق ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿ وجاءهم البينات ﴾ الدلائل الواضحة على صدقه وصحة نبوته في كتبهم المنزلة عليهم، وفي القرآن الكريم المنزل عليه ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [٨٦] الجاحدين للحق والمعرضين عنه، ثم بينت الآيات جزاء ظلمهم وجحودهم بقوله جل وعلا: ﴿ أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ [٨٧] بسبب كتمانهم للحق وجحودهم له مع معرفتهم به، قال تعالى: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾(2) فكتمان الحق جريمة كبرى، فما بالك إذا انضم إليه الجحود والإنكار.

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ توعد كاتم العلم عن المحتاج إليه بلجام من نار يوم القيامة، فقال: «من سئل عن علم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»(3).

﴿ خالدين فيها ﴾: أي في النار، أو في اللعنة، ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ [٨٨] فلا تخفيف للعذاب عنهم ولا تأخير.

ومن رحمته سبحانه أنه فتح باب التوبة للمذنبين مهما كانت ذنوبهم كبيرة وهو من أساليب التربية القرآنية الرفيعة، فلا ينبغي لمذنب أن يصر على ذنبه يأساً من

---

(١) روح المعاني ٢/٢١٦.

(٢) البقرة: الآية ١٥٩.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

رحمة الله تعالى ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ ما أفسدوا، فأظهروا الحق الذي كتموه ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ [٨٩].

تباركت ربي ما أعظم رحمتك وأوسع مغفرتك!!!

الإصـرار علـى الكفـر

فعليهم أن يسارعوا إلى التوبة قبل نزول الموت بهم، لأنها لا تقبل عندئذ ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ﴾ وهم اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام وبالإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم وكتبهم، ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم، ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ إذا حضرهم الموت وعاينوا العذاب، ﴿ وأولئك هم الضالون ﴾ [٩٠] عن طريق الحق والنجاة، بسبب تأخير التوبة والإصرار على الكفر.

ولو أنهم بادروا إلى التوبة قبل نزول الموت بهم لقبل الله تعالى توبتهم، أكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴾: أي أصروا على الكفر وتمسكوا به حتى ماتوا عليه ﴿ فلن يُقْبَل من أحدهم مِلءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ فمن مات كافراً لا يقبل الله تعالى منه أي فداء، ولو كان ملء الأرض ذهباً فهو كما قال تعالى: ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبِّل منهم ولهم عذاب أليم ﴾[1].

وذكْر الذهب في الآية تعريض بأولئك الذين كفروا بمحمد ﷺ وكتموا الحق من أجل الذهب ـ كما مر معنا ـ وذهب الأرض كله لا ينفعهم يوم القيامة إن ملكوه وأحضروه معهم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما في الأرض من شيء، أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر

---

(١) المائدة: الآية ٣٦.

أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك»(١).

وهؤلاء أخذ الله عليهم العهد بواسطة أنبيائهم أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء محمد ﷺ إن أدركوا زمنه، وبين لهم نعوته وصفاته، فلما أدركوا زمنه وعرفوه بصفاته ونعوته، كفروا به، وجحدوا نبوته ورسالته، من أجل مصالحهم المادية، ومراكزهم الدينية ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ [٩١] ينقذونهم من العذاب ويمنعونهم منه.

بــذل المحبــوب

الحق أعلى من الذهب والرُّتَب، ولا يجوز أن يعرض الإنسان عن الحق ويجحده من أجل الذهب والرتب، كما فعل أحبار اليهود، عندما كتم أكثرهم الحق، وجحدوا نبوة سيدنا محمد ﷺ، من أجل مصالحهم الدنيوية ومراتبهم الدينية، وكان عليهم أن يعلنوا الحق ويظهروه للناس، وينقادوا له، فيؤمنوا برسالة الإسلام، ولو كلفهم ذلك أن يفقدوا امتيازاتهم ورتبهم، وما تدرّه عليهم من ربح ومكاسب. فالحقيقة غالية الثمن، ولا بد أن يضحوا من أجلها بما يحبون، وهو ما قرره سبحانه بقوله: ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾.

فلن يصل الإنسان إلى الخير والإحسان والسعادة والجنة حتى يبذل في سبيلها ما يحب، وكلمة (تنفقوا) تدل على المال، فهو المحبوب الذي يجب بذله من أجل الوصول إلى رضوان الله تعالى والجنة، فالبر غالي الثمن، عزيز المنال، لا بد أن تضحي من أجله بما تحب لتصل إليه، فالمراد بالإنفاق مطلق البذل، وفيه من الإيذان بعزة منال البر ما لا يخفى(٢).

والآية الكريمة، وإن كانت خطاباً لأهل الكتاب، تقرر مبدأً عاماً لكل الناس، ولهذا بادر كثير من الصحابة رضي الله عنهم إلى إنفاق أحب أموالهم في سبيل الله

---

(١) متفق عليه.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/٥٧.

تعالى. أنفق أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه بيرحاء، بستاناً له قرب المسجد، وكانت أحب أمواله، وأنفق عمر بن الخطاب رضي الله عنه سهمه في خيبر، وقال: يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به، فقال: «احبس الأصل وسبّلْ الثمرة»(١)، وعمد زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى فرس يقال له: سَبَل، كان أحب ماله إليه، فجعله في سبيل الله، وأعتق ابن عمر رضي الله عنه نافعاً مولاه بعد أن أعطي فيه ألف دينار...(٢).

هكذا كانوا رضي الله عنهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالى.

﴿ وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾ [٩٢] فيجازيكم بحسبه. على هذا الدرب سار الكثيرون منهم، يلبون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البر كله، يوم هداهم إلى الإسلام، ويتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال، ومن شح النفس، ومن حب الذات، ويصعدون في هذا المرتقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء(٣).

التحـــدي بالتـــوراة

حَرّم إسرائيل ـ وهو يعقوب بن إسحاق بـن إبراهيم عليهم السلام ـ أحبَّ الطعام والشراب إلى نفسه تقرباً إلى الله تعالى، وكان أحب طعام وشراب إلى نفسه لحوم الإبل وألبانها، وكانت قبله حلالاً.

ولما بحث يهود المدينة المنورة عن شيء يعترضون به على النبي ﷺ وقعوا على موضوع لحوم الإبل وألبانها، فأتوا إلى النبي ﷺ وقالوا: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها، لأنها محرمة عليه، فأنزل الله تعالى رداً عليهم: ﴿ كل الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل ﴾: أي حلالاً لهم ﴿ إلا

---

(١) متفق عليه.
(٢) انظر تفسير القرطبي ٤/١٣٢.
(٣) في ظلال القرآن ١/٢٢٥.

ما حرم إسرائيل على نفسه من قَبل أن تُنَزّل التوراة ﴾ فلما نزلت التوراة على موسى حرُم عليهم فيها ما حرم إسرائيل على نفسه، وحرم عليهم أيضاً فيها بعض الطيبات من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم، عقوبة لهم وتشديداً عليهم(١).

ولما أنكروا ذلك أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يتحداهم بالتوراة ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [٩٣].

وهذا من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، أن يتحداهم بكتابهم التوراة، وهو أمي عليه الصلاة والسلام لا يقرأ ولا يكتب.

فبُهتوا، ولم يجسروا أن يأتوا بالتوراة استجابة للتحدي، ونكصوا على أعقابهم خاسرين، وأنزل تعالى فيهم: ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك ﴾ فزعم أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ [٩٤] الذين لا ينقادون للحق ولا يعملون به.

وبهذا أظهر سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، وأن فيه الفرقان بين الحق والباطل، كما أظهر صدق النبي ﷺ وصحة نبوته ورسالته، وأثبت سبحانه أيضاً بهذه الواقعة إمكان حدوث النسخ في الأحكام والشرائع الإلّهية، ونقض بهذا مزاعم اليهود بعدم حدوث النسخ في الأحكام والشرائع الإلّهية، كي يتوصلوا إلى القول بثبات العمل بشريعة التوراة، وعدم إمكان نسخها.

وإيراد الآية الكريمة ﴿ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل ﴾ في سياق قوله تعالى: ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فيه تعريض بأحبار اليهود، الذين لم يفعلوا ما فعل إسرائيل عليه السلام الذي ينتسبون إليه، فقد ترك أحب طعام وشراب إلى نفسه تقرباً إلى الله تعالى. فلو كانوا حقاً يقتدون به ويسيرون على خطته، لتخلوا عن تعصبهم لأنفسهم ومراتبهم الدينية ومصالحهم المادية، وانقادوا للحق وآمنوا برسالة القرآن الكريم، وأقروا بصدق النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، الذي أُمر أن يقول لهم أيضاً: ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴾

(١) انظر الحلال والحرام في سورة المائدة.

وهي عقيدة التوحيد والاستسلام لله تعالى وحده، مع الإعراض عن كل ما سواه ﴿ وما كان من المشركين ﴾ [٩٥]: أي ما كان إبراهيم عليه السلام من المشركين أبداً في أي وقت من الأوقات، بل كان موحداً مائلاً عن كل دين باطل.

البيـــت الأول

ظهر لنا من خلال الآيات مدى التوافق والاتساق بين آيات السورة، فكل آية تتمم سباقها وتمهد لما يأتي بعدها، فقد قررت الآيات السابقة وقوع النسخ في الأحكام، ومهدت بهذا الموضوع لنسخ استقبال بيت المقدس في الصلاة باستقبال بيت الله الحرام، وهو من القضايا التي احتج بها اليهود على النبي ﷺ، إذ بقي عليه الصلاة والسلام ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً بعد الهجرة، يستقبل في صلاته بيت المقدس، ورغب عليه الصلاة والسلام أن يتحول إلى بيت الله الحرام قبلة إبراهيم عليه السلام، فأنزل الله تعالى عليه قوله الكريم: ﴿ قد نرى تَقَلُّبَ وجهك في السماء فَلَنُوَلِّينك قبلةً ترضاها، فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون ﴾[١].

وأنزل الله تعالى في سورة آل عمران الآيات التالية، يبين فيها فضل المسجد الحرام، وصلته بإبراهيم عليه السلام، وبهذا تتضح قوة الوشائج التي تربط بين الإسلام وملة التوحيد التي كانت ملة إبراهيم والأنبياء بعده: ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾: أي ليعبد فيه الناس ربهم، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾[٢] وقال أيضاً: ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام.. ﴾ الآية[٣].

---

(١) البقرة: الآية ١٤٤.
(٢) الحج: الآية ٢٥
(٣) المائدة: الآية ٩٧.

وكلمة (وُضع) تدل على قدم البيت الحرام، وأنه كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام[1]. وقد أعاد بناءه برفع قواعده، قال تعالى: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[2].

ويبين سبحانه مكان البيت بقوله: ﴿ لَلذي ببكة ﴾: أي البيت الذي بمكة، وسميت مكة المكرمة ببكة، لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة الذين يريدونها بسوء، ولأن الناس يزدحمون فيها بسبب كثرة الوافدين عليها للعبادة.

﴿ مباركاً ﴾ كثير الخير، ومن بركاته مضاعفة ثواب الطاعات فيه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام»[3]، وفي رواية ثانية بزيادة: «وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي»[4].

ومن بركته أيضاً ما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب وتكفير السيئات، ﴿ وهدى للعالمين ﴾ [٩٦] يهتدون به إلى جهة صلاتهم، وفيه بُعث خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأُنزل عليه القرآن الكريم لهداية العالمين.

بلد السلام

﴿ فيه آيات بينات ﴾: أي علامات واضحات على حرمته ومزيد فضله، منها ﴿مقام إبراهيم ﴾ وهو الحجر الذي كان إبراهيم يقف عليه عندما رفع قواعد البيت الحرام، وفيه آثار قدميه منطبعة داخل الصخر، ولا تزال باقية حتى الآن، ثم أخبر سبحانه عما أوجب من أَمْنٍ وسلام لمن دخل أرض الحرم، فقال: ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ فمكة المكرمة بلد الأمن والسلام، وأرضها أرض حرام، حرمها الله

(١) نظم الدرر ٥/٦.
(٢) البقرة: الآية ١٢٧.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواها أحمد وابن حبان في صحيحه.

تعالى، قال رسول الله ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا يُنفَّر صيده، ولا يلتقط لُقَطَته إلا من عرَّفها، ولا يُختلىٰ خلاه، قال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فقال ﷺ: «إلا الإذخر»[1].

الحج إلى بيت الله الحرام

ثم بيّن تعالى ارتباط البيت الحرام، بركن هام من أركان الإسلام، فقال: ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ فالبيت رمز لتوحيد المسلمين ووحدتهم، فهو قبلتهم في صلاتهم، ويؤدون فيه مناسك حجهم، وتأتيه وفودهم من شتى بقاع الأرض، منذ أعلن إبراهيم دعوته سبحانه الناس لأداء مناسك الحج ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾[2].

فيجب على كل إنسان يستطيع الوصول إلى بيت الله الحرام أن يأتيه لأداء مناسك الحج، فهو لكل الناس ـ كما مر معنا ـ ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾، ﴿ وأذِّن في الناس ﴾.

واليهود والنصارى من الناس، فهم مكلفون بالحج إلى بيت الله الحرام لا إلى غيره، فإن جحدوا فضله وأعرضوا، فالله سبحانه غني عنهم وعن عبادتهم وحجهم ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ [٩٧].

وقوله تعالى: (ومن كفر) بدل (ومن لم يحج) يدل على أهمية الحج، وأن من تركه جاحداً له كافر، وقوله أيضاً: (غني عن العالمين) مكان (عنه) يدل على

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود، ومعنى: لا يعضد: لا يقص، لا يختلى خلاه: لا يُرعى الكلأ النابت فيه، والإذخر: نبات طيب الرائحة.

(٢) الحج: الآية ٢٧. وانظر الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج.

كمال غنى الله تعالى، كما يدل على شدة سخطه تعالى على المنكرين لفريضة الحج وفضل البيت الحرام[1].

ولما كان أهل الكتاب أكثر الناس إنكاراً وجحوداً لفضل المسجد الحرام والتوجه إليه في الصلاة، التفتت الآيات تخاطبهم بقوله تعالى: ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ الدالة على صدق النبي ﷺ وفضل بيت الله الحرام ﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ [٩٨] من التحريف والجحود والكتمان.

الصد عن سبيل الله

ثم أمرت بمواجهتهم بجريمة صد الناس عن الإسلام ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن ﴾ بالله الواحد الأحد وصدق برسله ﴿ تبغونها عوجاً ﴾: أي تطلبون الزيغ والميل عن سبيل الله تعالى ﴿ وأنتم شهداء ﴾ أن محمداً ﷺ هو رسول الله حقاً وصدقاً ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ [٩٩] من صدٍّ عن سبيله، ومحاولة إحداث الفتن بين المسلمين.

وقد نزلت هذه الآية في رجل من اليهود اسمه شأس بن قيس، مر على نفر من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر فتى من اليهود أن يجلس معهم، ويذكرهم بيوم بعاث وما تقاولوا فيه من الأشعار، وهو يوم من أيام الجاهلية اقتتلت فيه الأوس والخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان منهم فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، أي عدنا إلى ما كان بيننا من قتال، فغضب الفريقان وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ أي الحرة ـ السلاحَ السلاحَ، فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى

---

(١) انظر تفسير النسفي وتفسير البيضاوي ١/٥٤٩.

الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم»، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس، وأنزل الله هذه الآية وما بعدها[1] :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ [١٠٠]، فأهل الكتاب عامة، واليهود خاصة، حريصون على إحداث الفتن بين المسلمين، وإبعادهم عن دينهم، بسبب الحقد والحسد اللذين يملآن قلوبهم، قال تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴾[2].

فهم يعلمون أن قوة المسلمين ووحدتهم في تمسكهم بدينهم، ولهذا يبذلون جهودهم لفتنة المسلمين عن دينهم، حتى قال أحد كبار رجال التنصير: ليس المهم أن ندخل المسلمين في المسيحية، إنما المهم أن نخرجهم من الإسلام. ولا عصمة للمسلمين من كيدهم ومكرهم إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾، وهو إنكار وتعجيب لكفرهم في حال اجتمعت لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان، الصارفة عن الكفر[3]. والخطاب، وإن كان خاصاً بالصحابة رضي الله عنهم من الأوس والخزرج، فهو عام لكل المسلمين في أي زمان ومكان، ويدل على عمومه أنه سبحانه قال: ﴿ وأنتم تُتلى عليكم آيات الله ﴾ فلم يسند تلاوة الآيات إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) سيرة ابن هشام ١٤٧/٢ بتصرف واختصار.

(٢) البقرة: الآية ١٠٩.

(٣) تفسير البيضاوي ٥٥٢/١.

الاعتصام بالله تعالى

والقرآن الكريم محفوظ بحفظ الله تعالى له، ولا تزال آياته تتلى على المسلمين كأنها نزلت ساعة تلاوتها، وكذلك سنة الرسول ﷺ أيضاً حفظت ومُحصت، وهي تقوم مقامه عليه الصلاة والسلام بعد وفاته.

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ بالتوكل عليه والتمسك بهدي كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ [١٠١] المؤدي إلى رضوانه تعالى والجنة. فالكتاب والسنة هما الحصن الحصين للمسلمين من الضلال والاختلاف، وهما المصدران الأساسيان للإسلام وشريعته، وكان ﷺ يحث على التمسك بهما، ويغضب إذا رأى أحد أصحابه ينصرف عنهما إلى غيرهما، ولما جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أمرت بأخ لي يهودي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ تغيَّر وجه رسول الله ﷺ، حتى قال عبد الله بن ثابت: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، فسُرِّيَ عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»(١).

حبل الله

ويستدعي الاعتصام بالله تعالى أمرين اثنين:

أولهما: تقوى الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاته ﴾: أي كما يجب أن يُتقى على قدر طاقة الإنسان، لقوله تعالى: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾(٢)، ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [١٠٢]: أي كونوا على الإسلام، واثبتوا عليه حتى ينزل بكم الموت وأنتم على الإسلام.

---

(١) رواه أحمد في المسند.

(٢) التغابن: الآية ١٦.

ولا يدري الإنسان متى يحضره الموت، ولهذا عليه أن يكون مداوماً على التقوى فهو الرباط الذي يربطَه بالإسلام ويشده إليه.

وثانيهما: ﴿واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً﴾: أي تمسكوا بدين الإسلام مجتمعين عليه، وكلمة (الحبل) تدل على وجود الخطر، فإن من خشي التردي والسقوط يتمسك بالحبل، وحبل الله: دينه وشريعته، فالإسلام كهف الأمان والسلام للمسلمين يحميهم من شرور أنفسهم، ومن كيد عدوهم، ولا نجاة لهم إلا به.

المسؤولية الجماعية

وكلمة (جميعاً) تدل على أن التمسك بحبل الله يجب أن يكون عاماً شاملاً جميع المسلمين، فالخطر يحدق بالأمة المسلمة كلها، والتبعات جسام، والمسؤولية جماعية، وإن استرخاء بعض السواعد عن التمسك بحبل الله يعرض الأمة كلها للخطر، فكلمة (جميعاً) تدل على المسؤولية الجماعية للأمة عن التمسك بدين الله تعالى والتزام شريعته، وقد أكد هذه المسؤولية الجماعية قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾[١]، ولهذا شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كما سيأتي قريباً ـ وعدم التمسك الجماعي بحبل الله تعالى يؤدي إلى التفرق والاختلاف، وهو ما نهى عنه سبحانه بقوله: ﴿ولا تَفَرَّقُوا﴾ فالفرقة خذلان وضعف، كما في قوله جل وعلا: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[٢].

ثم ذكرهم سبحانه كيف كانوا متفرقين مختلفين في الجاهلية ليعرفوا قدر نعمة الله عليهم بالإسلام: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً﴾ يقتل بعضكم بعضاً، ﴿فألَّفَ بين قلوبكم﴾ بهدايتها إلى الإيمان، واجتماعها على القرآن ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ في الدين والعقيدة، كما قال سبحانه: ﴿إنما

(١) الأنفال: الآية ٢٥.
(٢) الأنفال: الآية ٤٦.

المؤمنون إخوة ﴾ الآية[1]، وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه[2]، وبيّن ﷺ الثمرات الطيبة لأخوة الإيمان في المجتمع الإسلامي، فقال: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[3].

﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار ﴾: أي كنتم على وشك الوقوع في نار جهنم، بالموت على الكفر ﴿ فأنقذكم منها ﴾ بالإسلام، فقد أتاهم به خير الدنيا والآخرة ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ التي تدلكم على الدين الحق ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ [١٠٣].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ثم شرع الله سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأكيداً للمسؤولية الجماعية التي سبق الحديث عنها، وبهذا التشريع أصبح كل مسلم مسؤولاً عن حماية دين الله تعالى، حارساً لشريعته، فقال: ﴿ ولتكُنْ منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [١٠٤]. قال ابن كثير رحمه الله: والمقصود من هذه الآية، أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[4].

فللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أثر كبير في وحدة الأمة، وسلامتها من الاختلاف والفرقة والهلاك، وما أجمل المثل الذي ضربه النبي ﷺ لبيان أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سلامة المجتمع، ووقايته من أسباب الهلاك،

---

(١) الحجرات: الآية ١٠.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) مختصر ابن كثير ١/٣٠٦.

بقوله: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا جميعاً»(١).

ونظراً لخطورة الاختلاف والتفرق على المسلمين عادت الآيات تحذرهم منهما بقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ كاليهود والنصارى، فإنهم اختلفوا حتى كفر بعضهم بعضاً، وسفك بعضهم دماء بعض ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾: أي الآيات والحجج المبيِّنة للحق، والموجبة للاتفاق ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ [١٠٥] يوم القيامة بسبب اختلافهم وتفرقهم.

روى الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة، قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا واحدة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عِرْق ولا مفصل إلا دخله»، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ، لَغيرُكم من الناس أحرى أن لا يقوم به.

فاتباع الأهواء من أعظم أسباب الفرقة والاختلاف، ولهذا توعدتهم الآية بالعذاب العظيم يوم القيامة، عندما يميز الله تعالى بين المؤمنين المتمسكين بالحق، وبين أصحاب الأهواء الضالين المضلين. ﴿يوم تَبْيضُّ وجوهٌ وتسوَدُّ وجوه﴾ فلكل فريق سمته المميزة له، يظهرها سبحانه على وجوههم كما قال: ﴿وجوهٌ يومئذ مسفرة. ضاحكةٌ مستبشرة. ووجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قتَرة. أولئك هم الكفرة الفجرة﴾(٢).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) عبس: الآيات ٣٨ ـ ٤٢.

ثم بيّن الله تعالى مصير كل فريق، فقال: ﴿ فأما الذين اسْوَدَّت وجُوهُهم ﴾ فيقال لهم: ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ على جهة التوبيخ والتعجيب، والمقصود أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله ﷺ قبل بعثته، فلما بُعث كفروا به ـ كما مر معنا ـ، وكذلك الذين أسلموا ثم ارتدوا وماتوا على الكفر، ففي الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا فرطكم ـ سابقكم ـ على الحوض، وليُرفعن إليّ رجال منكم، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختُلجوا دوني[1]، فأقول: أي ربِّ أصحابي أصحابي، فيقال لي: لا تدري ما أحدثوا بعدك».

ويقال لهم أيضاً: ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ [١٠٦].

ويقابلهم الفريق الآخر: ﴿ وأما الذين ابْيَضَّت وجوهُهم ففي رحمة الله ﴾: أي في الجنة ﴿ هم فيها خالدون ﴾ [١٠٧] وفيها إشارة إلى أن المؤمن لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى، ولو استغرق عمره في طاعته، فطاعته لا تكفي لشكر نعمة من نعمه سبحانه، أكده قوله عليه الصلاة والسلام: «سدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيئاً من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا[2]، واعلموا أنه لن يُدخل أحدَكم عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى بمغفرةٍ ورحمة»[3].

اتجهت الآيات بعد ذلك بالخطاب إلى النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ تلك آيات الكتاب نتلوها عليك بالحق ﴾: أي هذه الآيات نقرؤها عليك بواسطة الوحي بالصدق والعدل في جميع ما أخبرت به ودلت عليه ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ [١٠٨] فلا يكون منه سبحانه ظلم أبداً، لأنه مالك الملك ذو الكمال والجلال، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله

(١) أُبعدوا عني.
(٢) أراد ﷺ أن يبين لهم التوسط في السلوك والمنهج بين العبادة والعمل، فلا يكون منهم غلو وتشديد على أنفسهم، فالإسلام دين اليسر.
(٣) رواه البخاري والنسائي.

ترجع الأمور﴾ [١٠٩] فيجازي المكلفين على قدر استحقاقهم، ولا يظلم أحداً منهم.

المسلمـون وأهـل الكتــاب

وفي الآيات تثبيت للنبي ﷺ في مواجهته لضلال النصارى وكيد اليهود وقد استمرّت هذه المواجهة بعده ﷺ بين المسلمين وأهل الكتاب على مدى التاريخ الإسلامي، ولا زالت مستمرة حتى العصر الحاضر، وازدادت مع مرور الأيام عمقاً وشراسةً، وأخذت في كل عصر أبعاداً جديدة، وخاصة في عصرنا الحاضر.

إن أكبر المعارك التي خاضها المسلمون في تاريخهم الطويل كانت في خلال المواجهة مع القوى الصليبية الحاقدة، واليهودية الماكرة، وإن القوى الصليبية واليهودية تقف في خندق واحد في مواجهة الأمة المسلمة، وشواهد التاريخ البعيد والقريب أكبر دليل على ذلك.

ولن تنتهي المواجهة ويتوقف الصراع حتى ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض ـ كما مر معنا ـ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية.

وبلاد الشام كانت ولا تزال بؤرة الصراع ومركز المواجهة، ففي مسند الإمام أحمد عن أبي أمامة قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام». قال ابن كثير: والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مشهوراً سائراً، حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ الآية[١]..

وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ولهذا

(١) الصف: الآية ٦.

تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم، في دمشق على المنارة البيضاء الشرقية منها، ولهذا جاء في الصحيحين: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)، وفي صحيح البخاري: (وهم بالشام)[1].

خيـــر الأمـــم

ودل على استمرار المواجهة مع أهل الكتاب أن الآيات الكريمة تحولت بعد توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ إلى توجيه الخطاب للمسلمين، تثبِّتهم، وترفع معنوياتهم وتبين مكانتهم بين الأمم، بقوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ والخطاب ليس خاصاً بأصحاب الرسول ﷺ الذين شهدوا عصر التنزيل، كما ذهب بعض المفسرين، بل هو عام لكل المسلمين في كل زمان ومكان، ويؤيده ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي الحسن علي بن أبي طالب، كرّم الله تعالى وجهه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء: نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم»[2].

فالمسلمون خير الأمم، وأنفع الناس للناس، لأنهم يحملون للناس أكرم رسالة وأعظم أمانة، وهي رسالة الإسلام.

وصيغة الإخبار بالماضي ﴿ كنتم خير أمة ﴾ تدل على أن هذه الصفة ملازمة لهم منذ وجودهم، وهي أظهر ما تكون في الجيل الأول من أجيال الأمة المسلمة، وهو جيل الصحابة رضي الله عنهم، قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[3].

ومعنى قوله: (أخرجت للناس): أي أُظهرت وأوجدت لخير الناس

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/١٢٩.

(٢) انظر روح المعاني ٤/٢٧.

(٣) متفق عليه.

ومصلحتهم بمشيئة الله وقدرته وحكمته وعلمه، فهذه الأمة رحمة من الله للناس، تحمل لهم رسالة الإسلام، رسالة السعادة والسلام.

شَـرْط الله تعالـى

وشرط سبحانه على المسلمين لينالوا هذه المكانة الرفيعة بين الأمم شَرْطاً، بيّنه بقوله: ﴿ تأْمرون بالمعروف وتَنْهَون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾: أي تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر إيماناً بالله تعالى، وإظهاراً لدينه(١).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤديان إلى نشر الإسلام وتطبيق أحكامه، فالمعروف كل ما أمر الله به وشرعه، والمنكر كل ما نهى الله عنه وحرمه، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل فتدخلونهم في الإسلام(٢).

فما دام المسلمون يعملون على نشر الإسلام بين الناس، فهم خير الأمم، فبالإسلام شرُفت أمتهم، وبدعوتهم إليه نالوا هذه المرتبة الرفيعة بين الأمم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من سره أن يكون من تلكم الأمة، فليؤد شَرْط الله فيها(٣).

قال ابن كثير رحمه الله: وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم، لم يُعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل(٤).

وقال سيد قطب رحمه الله: فهي خير أمة أخرجت للناس لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وليس توزيع

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ١/٥٦٦.

(٢) ذكره المفسرون، وهو في صحيح البخاري.

(٣) روح المعاني ٢/٢٨.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٠٨.

اختصاصات، كما كان أهل الكتاب يقولون: (نحن أبناء الله وأحباؤه) كلا، إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية عن المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر[1].

دعـوة أهـل الكتــاب

ثم قال تعالى: ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾: أي لو آمنوا برسالة الإسلام، وصدقوا نبوة سيدنا محمد ﷺ، لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة، ففي الإسلام خير الدنيا والآخرة.

وتخصيص أهل الكتاب بالذكر، مع أن دعوة الإسلام عامة لهم ولغيرهم، لأن آيات سورة آل عمران نزلت بسببهم، ومواجهة المسلمين معهم أكثر من المواجهة مع غيرهم ـ كما مر معنا ـ.

وقد استجاب بعضهم للنبي ﷺ، فأسلموا وشهدوا شهادة الحق، ودخل في الإسلام كثير منهم بعد فتح بلاد الشام، ومصر، والأناضول، والأندلس، وبلاد البلقان.

ويشهد العصر الحاضر إقبالاً على الإسلام واهتماماً به من بعض علماء النصارى ومثقفيهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ [١١٠]: أي الخارجون عن طاعة الله تعالى ودينه وشرعه.

ولو تمكن المسلمون اليوم أن يحسنوا دعوتهم، فيبرزوا لهم حقائق الإسلام وجوهره، ومدى تقديره للإنسان وتكريمه له، واحترامه للعلم والعلماء، لدخلوا في الإسلام أفواجاً.

فالقوم محجوبون عن حقائق الإسلام، بركام الأكاذيب والافتراءات التي صدرت عن القُسُس والرهبان، والحاخامات، على المدى الطويل للمواجهة مع

---

(١) في ظلال القرآن ١/٤٤٧.

الإسلام والمسلمين، كما أنهم يعانون في العصر الحاضر من فراغ روحي كبير لا يملؤه إلا الإسلام، ومن قلق نفسي عميق لا ينكشف عنهم إلا بسكينة الإيمان وبرد يقينه.

ولا شك أن قوله تعالى: ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ بعد الحديث عن مكانة الأمة المسلمة بسبب دعوتها إلى الإسلام وحملها لرسالته، يبرز مسؤولية الأمة المسلمة في نشر الدعوة، وخاصة بين أمم وشعوب أهل الكتاب.

أمـة الـرسـالـة

وتابعت الآيات تشد أزر المسلمين في مواجهتهم مع أهل الكتاب وترفع من معنوياتهم، بقوله تعالى: ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾: أي لن يتمكنوا من إيقاع ضرر كبير بكم، رغم شدة مكرهم وقوة كيدهم، ولكنهم يستطيعون إيصال الأذى إليكم.

فالمسلمون أمة الرسالة التي قدر الله تعالى بقاءها إلى قيام الساعة، ولن يتمكن أهل الكتاب من يهود ونصارى أن يتسلطوا على المسلمين تسلطاً كاملاً، مهما بذلوا من جهود، وحشدوا من طاقات وإمكانيات. قد يكون لهم تسلط جزئي في بعض الأوقات والأماكن، بسبب ضعف المسلمين وبعدهم عن دينهم، ولكن الغلبة في النهاية للمسلمين بعد أن يعودوا إلى دينهم، ويتمسكوا بشريعتهم.

﴿ وإن يقاتلوكم ﴾ وأنتم متمسكون بدينكم ﴿ يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ﴾: أي ينهزموا أمامكم، وينصركم الله عليهم، ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ [١١١]: أي لا يجدون ناصراً ينصرهم عليكم.

لقد استمرت الحروب الصليبية قرابة مائتي عام، ثم انتهت بنصر المسلمين وهزيمة الصليبيين، بعد أن عاد المسلمون إلى دينهم ووحدتهم، وقد هُزمنا أمام اليهود في فلسطين من أرض الشام هزيمة منكرة، لأننا قاتلناهم ونحن بعيدون عن الإسلام، وتحت رايات غريبة عن الإسلام ومعادية له، وستكون لنا الغلبة عليهم بإذن الله عندما نعود حقاً إلى ديننا وشريعتنا.

وها هم المجاهدون الأفغان يثبتون تحت الراية الإسلامية، في وجه الجيش

الأحمر الروسي، أقوى جيوش العالم في العصر الحاضر، على مدى عقْد كامل من السنين، ثم يجبرونه على الانسحاب من بلادهم بعد أن كبَّدوه خسائر فادحة في الرجال والعتاد[1].

هكذا قدر الله تعالى للأمة المسلمة، أن تكون قوتها وعزتها ونصرها بالإسلام، وضعفها وتخلفها وهزيمتها ببعدها عنه، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند أسوار بيت المقدس: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، وإن نبتغ العزة بغيره يذلنا الله.

حبل الناس

وألقت الآيات الكريمة بعض الأضواء على تاريخ اليهود ومصيرهم، وما قدر الله تعالى عليهم بسبب فسادهم وجرائمهم، بقوله تعالى: ﴿ ضُربتْ عليهم الذلة أينما ثقفوا ﴾: أي ألزمهم الله تعالى الذلة والصَّغار أينما كانوا، فهم مكروهون محتقرون من قبل جميع الشعوب والأمم، ﴿ إلا بحبل من الله ﴾: أي إلا بعهد من الله، وهو عقد الذمة وعهده، الذي عاشوا بمقتضاه آمنين مطمئنين في ظل الحكام المسلمين، ﴿وحبلٍ من الناس ﴾: أي وعهد من الناس.

هكذا فهم علماء التفسير الآية الكريمة، وهو فهم صحيح على ضوء الحقائق التي كانت في زمنهم، وأظهر الواقع المعاصر معنى آخر للآية، يدل على الإعجاز في كلام الله تعالى، الذي لا تنتهي معانيه، ففي كل عصر تظهر معانٍ جديدة لكلمات الله تعالى، لا تتعارض مع المعاني السابقة.

فحبل الناس في العصر الحاضر، معناه المعونات المادّية والسياسية والعسكرية، التي تقدم لليهود من الدول النصرانية الكافرة في الشرق والغرب، ولولا هذه المعونات ما تمكن اليهود من إقامة كيان لهم في فلسطين.

---

(١) بلغ عدد إصابات الجيش الروسي حسب التقارير الرسمية التي نشرتها الحكومة السوفيتية بمناسبة بدء الانسحاب، حوالي خمسين ألف إصابة منها سبعة عشر ألفاً قتلى، والآخرون جرحى.

وهذه المعونات لا تقدم لهم محبةً بهم، وإنما تقدم لهم كيداً للمسلمين ومكراً بهم، فلا زالت المواجهة بين المسلمين وأهل الكتاب قائمةً لم تتوقف ـ كما سبق معنا ـ والحروب الصليبية لم تنته بعد، والمعونات التي تقدمها الأمم والحكومات الصليبية لليهود في فلسطين مظهر من مظاهر الحرب الصليبية المستمرة.

والحبل في اللغة: السبب والصلة، والمعونات: أسباب وصلات، والحبل أيضاً العهد، والمعونات المقدمة لهم نتيجة العهود المبرمة بين اليهود من جهة، وبين الدول الكافرة التي تقدمها لهم.

المغضوب عليهم

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾: أي حَلُّوا بغضب الله ومكثوا فيه[1]، فهم المغضوب عليهم، بسبب جرأتهم على الله تعالى، وتحريفهم لكتابه، وقتلهم لأنبيائه، ﴿ وضُربتْ عليهمُ المسكنة ﴾: أي الشعور بالفقر والمهانة، فاليهودي مهما كان غنياً يتظاهر بالفقر والضعف، ولهذا تراهم يلجؤون إلى أقذر الوسائل لجمع المعونات والمساعدات. ولعل ما نسمع ونقرأ عن الأساليب الخبيثة القذرة التي يستعملونها لجمع التبرعات والهبات في أمريكا وغيرها من الدول، أكبر شاهد على الذلة والمسكنة التي ضربها الله تعالى عليهم، ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ المنزلة في التوراة والإنجيل والقرآن، ﴿ ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ بل بسبب الكبر والبغي والفساد، ﴿ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون ﴾ [١١٢] وكل ذلك بسبب عصيانهم وفجورهم، ومجاوزتهم للحدود التي شرعها سبحانه لهم.

المؤمنون من أهل الكتاب

استجاب بعض اليهود لدعوة النبي ﷺ، فأسلموا وانقادوا لدعوة الحق، ومع أن عددهم كان قليلاً فقد أخبر الله تعالى عنهم في كتابه الكريم، وشهد لهم

---

(١) تفسير الخازن ١/٥٦٨.

بالصدق والصلاح، وهذا يدل على أن الحق والعدل في كلام الله تعالى المنزل على سيدنا رسول الله ﷺ.

روى ابن إسحاق عن ابن عباس: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة ابن سَعْيَه، وأُسيد بن سعيه، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود، فآمنوا وصدقوا، ورغبوا في الإسلام، ورسخوا فيه، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله: ﴿ليسوا سواءً، من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ﴾[1]: أي ليسوا كلهم على حد سواء، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه، متبعة نبيه عليه الصلاة والسلام، فهي (قائمة) يعني مستقيمة على أمر الله[2].

﴿يتلون آياتِ الله آناءَ الليل وهم يسجدون﴾ [١١٣]: أي يكثرون تلاوة القرآن في صلاتهم في ساعات الليل.

ثم شهدت الآيات بصدق إيمانهم، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي السمة التي يمتاز بها المسلمون على غيرهم، ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين﴾ [١١٤]، وهكذا ألحقتهم الآيات بالأمة المسلمة التي هي خير الأمم، فأصبحوا جزءاً منها، فقد وصفتهم بصفات لا توجد في اليهود، فهم منحرفون عن الحق، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته، مداهنون في الاحتساب، متباطئون عن الخيرات[3]. وسيأتي معنا في آخر السورة شهادة ثانية من الله تعالى في المؤمنين من أهل الكتاب.

---

(١) تفسير القرطبي ٤/ ١٧٠.
(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣١٢.
(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٥٧٠.

﴿ وما يفعلوا من خيرٍ فلن يُكْفَرُوه ﴾: أي لا يضيع عند الله جزاؤهم ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ [١١٥].

سعـي ضـائـع

وبالمقابل فإن سعي الكافرين سعي ضائع لا ينفعهم، ولا يغني عنهم شيئاً في الدنيا والآخرة، وهو موجه إلى شؤون الدنيا المادية من أموال وأولاد، ولهذا عادت الآيات الكريمة فذكرت ما سبق تقريره في أوائل السورة: ﴿ إن الذين كفروا لـن تغنيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [١١٦].

ثم ضربت الآيات مثلاً لسعيهم الضائع بقوله عز وجل: ﴿ مَثَلُ ما يُنفقون في هذه الحياة الدنيا ﴾ على شهواتهم، للمكر والكيد بالمسلمين ﴿ كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ ﴾: أي برد شديد ﴿ أصابت حرثَ قومٍ ﴾ زرع قوم ﴿ ظلموا أنفسهم ﴾ بكفرهم وفجورهم ﴿ فأهلكته ﴾ ولم تبق منه شيئاً، وبهذا ضاع سعيهم وجهدهم ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ [١١٧] بسوء كسبهم واختيارهم للكفر والفجور، وإعراضهم عن دعوة النبي ﷺ.

فما أعظم الفرق بين هؤلاء الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وبين المؤمنين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وما يفعلوا من خيرٍ فلن يُكْفَروه ﴾.

التحذيـر من بطانـة السـوء

وختمت الآيات حديثها عن أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً، بتحذير المسلمين من موالاتهم، واتخاذهم أصحاباً وأعواناً، وتقريبهم بحيث يطلعون على أسرار المسلمين: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾: أي من غيركم، من أصحاب الملل والنحل المخالفة لدينكم، وبطانة الرجل: خاصته الذين يطلعون على أحواله وأسراره، سموا بطانة لشدة قربهم منه وصلتهم به، كقرب بطانة الثوب منه واتصالها به.

وجاء ذكر البطانة في قول الرسول ﷺ: «ما بعث الله من نبي واستخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخيرِ وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله»(١). ثم بيّن سبحانه علة النهي فقال: ﴿ لا يألونكم خبالاً ﴾: أي لا يقصرون في فسادكم وغشكم وإلحاق الشر والضرر بكم.

﴿ ودّوا ما عنِتُّم ﴾: أي يودون عنتكم، وهو ما يشق عليكم من الشر والضرر، فالعداوة في الدين عداوة عميقة وقوية، تجعل قلوبهم ممتلئة بالبغض لكم والحقد عليكم، ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾: أي ظهرت البغضاء التي في قلوبهم عليكم فيما يبدو من كلماتهم، وفلتات ألسنتهم، فمهما صانعوكم وداهنوكم فلا بد في يومٍ ما أن تظهر سرائر قلوبهم على فلتات ألسنتهم. ﴿ وما تُخفي صدورُهم أكبر ﴾ مما يظهر على ألسنتهم، وفي بعض تصرفاتهم، فالحقد عميق في قلوبهم ونفوسهم.

﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ التي تكشف لكم حقيقتهم ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ [١١٨]: أي تحسنون فهمها، وتعملون بهديها.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود، لما بينهم من القرابة، والصداقة، والحلف، والجوار، والرضاع، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، ونهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم(٢).

وكان عمر رضي الله عنه ينهى عماله وولاته أن يستعملوا أهل الذمة، ولما علم أن أبا موسى الأشعري استكتب ذمياً، كتب إليه عمر يعنفه، وقال له: لا تُدْنِهم وقد أقصاهم الله، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم وقد خوّنهم الله.

وقيل لعمر رضي الله عنه: إن هٰهنا رجلاً من نصارى الحيرة، لا أحد أكتب منه، ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين(٣).

---

(١) رواه البخاري والنسائي.
(٢) تفسير الخازن ١/٥٧٣.
(٣) تفسير القرطبي ٤/١٧٩.

ثم عقدت الآيات مقارنة بين سلامة قلوب المسلمين وطهارتها، وبين الحقد والغش الذي يملأ صدور اليهود، تأكيداً لمضمون الآية السابقة، قال تعالى: ﴿ ها أنتم أُولاءِ تحبونهم ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من جوار وصداقة ﴿ ولا يحبونكم ﴾ فلا يبادلونكم حباً بحب، ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾: أي تؤمنون بكل كتاب أنزله الله تعالى كالتوراة والإنجيل، بينما هم يكفرون بالقرآن الكريم، ويظهرون لكم خلاف ما يبطنون ﴿ وإذا لَقوكم قالوا آمنا، وإذا خَلَوْا عَضّوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾: أي وإذا خَلَوْا إلى بعضهم أظهروا حقدهم عليكم وغيظهم منكم، فالأنامل: أطراف الأصابع، والعض عليها كناية عن شدة الحقد والغضب والحسد، ﴿ قل مُوتوا بغيظكم ﴾ بسبب حقدكم وحسدكم، ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ [١١٩]، فيفضح ما في صدوركم من حقد وحسد، ويجازيكم عليه.

وما من شك أن هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب لأهل الكتاب، المجاوِرين للمسلمين في المدينة، يبصر المسلمين بحقيقة الأمر، ويوعيهم من كيد أعدائهم الذين لا يخلصون لهم أبداً، ولا تغسل أحقادهم مودة المسلمين وصحبتهم وجوارهم في أرض، ومشاركتهم في وطن، ولم يجىء هذا التحذير ليكون مقصوراً على فترة تاريخية معينة، كما قال سيد قطب رحمه الله[١]، فهو حقيقة واقعة ملموسة، ويعيشها المسلمون في العصر الحاضر واقعاً مشاهداً في كل بلادهم.

شماتتهم بالمسلمين

ومما يؤكد شدة عداوتهم لكم أنه ﴿ إن تَمْسَسْكُم حسنةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾: أي إن أصابكم خير أو منفعة أو نصر على عدوكم، يحزنهم ذلك ويحسدوكم، ويتمنَّوْا زوالها عنكم، فلا يريدوا لكم أي خير.

لقد أدخل انتصار المسلمين في بدر حزناً شديداً على يهود المدينة، ذكر ابن

(١) في ظلال القرآن ١/٤٥٢.

هشام أن كعب بن الأشرف، وكان من كبار اليهود وشعرائهم، قال عندما بلغه مصاب قريش في بدر: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبطنُ الأرض خير من ظهرها، فلما تيقن عدو الله الخبر. . . خرج حتى قدم مكة. . . وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أُصيبوا ببدر(١).

ولما جمع رسول الله ﷺ يهود بني قَيْنُقاع بعد غزوة بدر، وقال لهم: يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم، قالوا: يا محمد. . . لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس(٢).

﴿ وإن تُصِبْكم سيئة يفرحوا بها ﴾: أي وإن تصبكم مصيبة في أموالكم وأنفسكم، أو في تسلط العدو عليكم ونيله منكم ـ كما حدث في غزوة أحد ـ سرّهم ذلك وفرحوا به، وأظهروا الشماتة بكم، وقد فعل اليهود ذلك بعد غزوة أحد ـ كما سيأتي ـ ويفعل أهل الكتاب هذا كلما حلت بالمسلمين مصيبة، أو نزلت بهم نازلة في العصر الحاضر.

ومع ذلك لا زال كثير من المسلمين يفتحون لهم قلوبهم، ويجاملونهم حتى في عقيدتهم ومنهج حياتهم، ورحم الله سيد قطب عندما قال: وتبلغ بنا المجاملة، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية، أن نجاملهم في عقيدتنا فنتحاشى ذكرها، وفي منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام، وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه، كي نتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين، ومن هنا يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله، ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي، ومن هنا نلقى العنت الذي يوده أعداؤنا لنا، ونلقى الخبال الذي يدسونه في صفوفنا(٣).

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣/٨.
(٢) المرجع نفسه ٣/٥.
(٣) في ظلال القرآن ١/٤٥٣.

والسبيل إلى النجاة من كيدهم ومكرهم بيّنه تعالى بقوله: ﴿وإن تصبروا وتتقوا﴾: أي تلزموا أنفسكم بالصبر على المكروه، وتتقوا الله تعالى بطاعته واجتناب معاصيه ﴿لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ لأنكم في حفظ الله ورعايته، وهذا تعليم من الله تعالى، وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك[1]. ﴿إن الله بما يعملون محيط﴾ [١٢٠]: أي عالم بجميع أعمالهم ومجازيهم عليها.

---

(١) تفسير النسفي ١/٥٧٥.

الفَصْل الرَّابِع

غَـزْوَةُ أُحُـدٌ

تمهيد

حدثت غزوة أحد في يوم السبت الموافق منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة، أي بعد غزوة بدر بما يزيد قليلاً على سنة، وانتصر فيها المسلمون في أول الأمر، مع أنهم كانوا أقل بكثير من المشركين، فقد كان عدد المسلمين سبعمائة، بينما كان المشركون ثلاثة آلاف.

وبعد ذلك تحول وجه المعركة لصالح المشركين، بسبب مخالفة أكثر الرماة الذين كانوا على الجبل لحماية ظهر المسلمين، فإنهم لما رأوا المشركين يتراجعون أمام المسلمين وينهزمون، ظنوا أن النصر قد تحقق، وأن المعركة قد انتهت، فتركوا مواقعهم ونزلوا لجمع الغنائم من المنهزمين.

وانتهز فرسان المشركين فرصة انكشاف ظهر المسلمين، فَكَرَّ خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل بفرسان المشركين على المسلمين من الخلف، وعاد المنهزمون، ووقع النبي ﷺ في حفرة أعدها أبو عامر الراهب من قبل، وحدث اضطراب في صفوف المسلمين، وقتل مصعب بن عمير حامل لوائهم، ونادى منادي المشركين: إن محمداً ﷺ قد قُتل، فغلب الوهن على كثير من المسلمين، وتركوا أرض المعركة، حتى وصل بعضهم إلى المدينة المنورة، وثبت ﷺ في أرض المعركة مع قلة من أصحابه ثبتوا معه حتى انتهى القتال.

وكان مصاب المسلمين في أحد كبيراً، إذ استشهد سبعون رجلاً منهم حمزة ابن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وأصيب النبي ﷺ في وجهه الشريف وكسرت رباعيته[1]، ودخلت حلقتا المغفر في وجنتيه، ومثل المشركون بجثث أصحابه،

---

(١) السن الرابع من مقدمة الفم.

وبقروا بطن حمزة، وأخرجوا كبده، بينما قتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً.

وتفصيل ما وقع في أحد ليس من شأننا هنا، فمحلّ ذلك كتب التاريخ والسير، وسيأتي مزيد من التفصيل من خلال الآيات الكريمة التي أنزلها الله تعالى بهذه المناسبة، والتي بلغت قرابة ستين آية.

إنما الذي يعنينا هنا أن نبين صلة هذه الآيات بما قبلها وما بعدها من آيات السورة، وموقعها منها.

واتصال الآيات واضح ظاهر بالآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿ إن تصبكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ الآية، فكما استاء اليهود وحزنوا بسبب انتصار المسلمين في بدر، فقد فرحوا بمصاب النبي ﷺ والمسلمين في أحد، وأعلنوا شماتتهم بالنبي ﷺ وأخذوا يشيعون الإشاعات الكاذبة عنه، ويقولون: الآن بطل سحر محمد. ثم تجرؤوا عليه، فمكروا به، وحاولوا قتله، عندما جاء ﷺ إلى بني النضير، يستعين بهم في دية العامريَّيْن اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري.

ولآيات غزوة أحد صلة أيضاً بما مر معنا من قوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ وما قلناه ثمة من تقرير الإسلام للمسؤولية الجماعية على جميع أفراد المجتمع الإسلامي، فإن أي مخالفة تصدر عن بعض الأفراد تنعكس آثارها على جميع المسلمين، وقد ظهر هذا بشكل واقعي في غزوة أحد، فقد انعكس أثر المخالفة التي ارتكبها الرماة على جميع أفراد جيش المسلمين، ولم يسلم منها أحد، حتى النبي ﷺ أصيب بما أصيب به عليه السلام بنفسه وبمن قتل من أصحابه، وفيهم عمه حمزة رضي الله عنه.

كما ظهر في أحد بشكل عملي، ما يترتب على التفرق والاختلاف من ضعف وخذلان، وهو ما حذر منه سبحانه بقوله: ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ الآية، والمسلمون في صراع دائم ومواجهة مستمرة مع الصليبية الحاقدة واليهودية الماكرة، كما تشير آيات السورة، وهم في أشد الحاجة إلى دروس أحد وعظاتها في مواجهتهم وصراعهم مع قوى الكفر.

وفضلاً عن ذلك، فما حدث في أحد يؤكد بشرية النبي ﷺ، وعبوديته لله تعالى، وأنه يجوز على الأنبياء أن يصابوا، كما يصاب عامة البشر، وبهذا استدل هرقل ملك الروم على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام، وكان من كبار رجال الدين عند النصارى.

فعندما أتاه كتاب النبي ﷺ ـ الذي سبق ذكره ـ يدعوه فيه إلى الإسلام، دعا هرقل نفراً من قريش كانوا في تجارة لهم هناك، وكان فيهم أبو سفيان، وكان لا يزال على شركه، لم يسلم بعد، فسألهم هرقل عن النبي ﷺ أسئلة كثيرة، منها: قال: فهل قاتلتموه؟ قلت ـ القائل أبو سفيان ـ: نعم، قال: كيف كان قتالكم إياه؟ قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً، يصيب منا ونصيب منه.

وعلق هرقل بعد ذلك على هذا فقال: وسألتك هل قاتلتموه، فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم سجالاً، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة[1].

وهناك جوانب أخرى، تظهر صلة آيات أحد بموضوع سورة آل عمران ستنكشف لنا إن شاء الله من خلال الحديث عن الآيات.

الطريق إلى أحد

كانت تصرفات النبي ﷺ في أحد أفضل ما ينبغي أن تكون عليه تصرفات القائد العسكري، ولهذا لم تتوجه الآيات بأيّ عتاب إلى النبي ﷺ عن المصاب في أحد، ولم تحمله أيّ مسؤولية عما حصل، بل أبرزت مواقفه ﷺ في أحد في الوقت الذي وجهت اللوم والعتاب لأصحابه، وشرعت الآيات في مستهل حديثها عن غزوة أحد تبين ما فعله ﷺ قبل بدء المعركة، فقد قام ﷺ بتنظيم جنوده، وتوزيعهم في المواقع التي تتناسب مع طبيعة ميدان المعركة، وطبيعة القتال والأسلحة في ذلك الوقت. قال تعالى: ﴿ وإذْ غـدَوْتَ من أهلك تَبوِّىءُ المؤمنين مقاعدَ للقتال ﴾: أي

(١) انظر الحديث كاملاً في الصحيحين البخاري ومسلم.

اذكر إذ خرجت غُدوَةً من أهلك بالمدينة المنورة، وكان ﷺ في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها، إلى أحد، تنزل المؤمنين في أماكن القتال، وتعين لكل منهم مكانه في الميدان، فجعل ﷺ ظهر جيشه إلى جبل أحد، وتعبأ ﷺ، ومشى على رجليه في أرض المعركة، وجعل يصف أصحابه، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير، وقال: انضح الخيل عنا، لا يأتونا من خلفنا، إن كان علينا أو لنا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك(١).

﴿ والله سميع عليم ﴾ [١٢١] سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم.

﴿ إذ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ وهما بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي جيش المسلمين، ومعنى (أن تفشلا) أن تضعفا وترجعا إلى المدينة، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد في ألف رجل، فلما بلغوا الشوط ـ مكان في الطريق ـ انخذل عبد الله بن أُبيّ زعيم المنافقين بثلث الجيش، ورجع إلى المدينة، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ واحتج بأن النبي ﷺ أطاع الولدان وخالفه.

وكان عبد الله بن أبي من الذين أشاروا على النبي ﷺ بالبقاء في المدينة، والتحصن في بيوتها، إلا أن شباب الصحابة، وخاصة الذين لم يحضروا غزوة بدر، أشاروا عليه ﷺ بالخروج إلى لقاء المشركين في أحد. ولما انصرف ابن أبي همت طائفتان من المؤمنين بالانصراف معه، فعصمهم الله وثبتوا، قال ابن عباس رضي الله عنه: أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد، فثبتوا، فذكرهم الله عظيم نعمته عليهم(٢).

وقوله تعالى: (أن تفشلا) يدل على صراع كبير كان قائماً في دخائلهم، بين الرجوع إلى المدينة وبين الثبات مع رسول الله ﷺ، وجعلتهم ولاية الله تعالى لهم ينتصرون على أنفسهم، ويثبتون مع نبيهم عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال سبحانه يبين سبب ثباتهما: ﴿ والله وليّهما ﴾: أي متولي أمرهما بالتوفيق والتثبيت.

---

(١) انظر روح المعاني ٤/٤٢.
(٢) انظر تفسير الخازن ١/٥٧٨.

وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: فينا نزلت ﴿ إذ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ الآية، نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمـة، وما يسرني أنها لم تنزل، لقوله تعالى: ﴿ والله وليهما ﴾(١).

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [١٢٢]: أي فليتوكلوا عليه سبحانه وحده، ولا يتوكلوا على غيره.

الإمـــداد بالملائكـــة

ثم ذكرتهم الآيات بنعمته سبحانه عليهم في غزوة بدر، ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾: أي وأنتم قلة، فقد كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، بينما كان عدوهم من كفار قريش زهاء ألف رجل، ومعهم سلاح كثير وعتاد وفير.

﴿ فاتقوا الله ﴾ في هذا اليوم بالثبات مع رسول الله ﷺ وطاعته ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ [١٢٣] بتقواكم نعمة ربكم عليكم، فشكر الله تعالى يكون بطاعته وتقواه.

ومن نعمه سبحانه عليهم أنه أمدهم بالملائكة، وبشرهم النبي ﷺ بهذا المدد الإلٓهي: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكْفِيَكم أن يُمدِّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ [١٢٤] بأمره تعالى ومشيئته ﴿ بلىٰ ﴾: أي بلى يكفيكم هذا الإمداد، ومع ذلك فإنكم إن صبرتم واتقيتم الله تعالى بطاعته وطاعة نبيه عليه الصلاة والسلام، فإنه سبحانه يزيد في إمدادكم بالملائكة ﴿ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فَوْرِهم هذا ﴾: أي ويأت المشركون لقتالكم على الفور مسـرعين، ﴿ يُمْدِدْكم ربكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسومين ﴾ [١٢٥]: أي مرسلين، أو معلمين بسمة القتال وشارته.

---

(١) صحيح البخاري.

واختلف المفسرون في هذا الوعد بالإمداد بالملائكة، هل كان في بدر أم في أحد؟ وهو أمر غير مهم، المهم أنه سبحانه حثهم على أمرين اثنين هما أعظم أسباب استنزال معونته سبحانه وتأييده ونصره، وهما: الصبر، والتقوى.

وقد مر معنا من قريب قوله سبحانه: ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ وبهذا يظهر لنا صلة جديدة أخرى لآيات غزوة أحد بسباقها من آيات السورة. فالصبر والتقوى كهف السلامة، وسلم العافية لكل مبتلى وممتحَن، أدرك هذه الحقيقة الأنبياء والصالحون من خلال تجاربهم، هذا نبي الله يوسف عليه السلام يستخلص من قصته ومعاناته الطويلة في حياته هذه النتيجة، فيقول لإخوته عندما عرفهم بنفسه: ﴿ أنا يوسف وهذا أخي، قد مَنَّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾(١)، وهذا نبي الله موسى عليه السلام ينصح بني إسرائيل وهم في المحنة، مثبتاً، فيقول: ﴿ استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين ﴾(٢).

وكي تبقى قلوبهم معلقة بالله تعالى وحده، فلا يكون منها التفات إلى الأسباب، وتبقى متوجهة إلى مسبب الأسباب وحده، قال عز وجل: ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ﴾: أي ما جعل الإمداد بالملائكة إلا بشارة بالنصر، وتطميناً لقلوبكم ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ فلا يكون نصر إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته، فهو سبحانه قادر على نصركم بدون إمدادكم بالملائكة ﴿ العزيز الحكيم ﴾ [١٢٦]: ذو العزة والقهر والغلبة، وذو الحكمة في كل ما يقدر من أقدار ويشرع من أحكام.

ومن حكمته سبحانه في تشريع الجهاد وتكليف المؤمنين بالقتال، ما بيّنه بقوله: ﴿ ليقْطَعَ طرفاً من الذين كفروا ﴾: أي ليهلك فريقاً من الكافرين ﴿ أو

---

(١) يوسف: الآية ٩٠.

(٢) الأعراف: الآية ١٢٨.

يَكْبِتَهم ﴾ أو يخزيهم ويغيظهم ﴿ فينقلبوا خائبين ﴾ [١٢٧] فيرجعوا خاسرين غير ظافرين.

ليس لك من الأمر شيء

وتأكيداً لهذا المعنى التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تخاطبه بقوله عز وجل: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾، فالأمر كله لله تعالى وحده، هو المالك والمدبر جل جلاله، وسيدنا محمد ﷺ صفوة خلقه سبحانه، وأقرب المقربين إليه، ليس له من الأمر شيء، فهو عبد الله تعالى، والنبوة والرسالة والزلفى عند الله تعالى، كل ذلك لم يزحزحه عن مقام عبوديته لله تعالى، فكيف رفع النصارى عيسى بزعمهم عن مقام عبوديته لله تعالى؟! وكيف رفع اليهود أيضاً عزيراً بزعمهم عن مقام عبوديته لله جل جلاله؟!.

﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ هو الفرقان الحق الذي يدل على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته، والذي يدل أيضاً على وحدانية الله تعالى وكماله وغناه.

فالخلق كلهم ملكه، والأمر فيهم له وحده جل جلاله، لا يشاركه فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب. ﴿ ألا له الخلقُ والأمر، تباركَ الله رب العالمين ﴾(١). عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كُسرت رَباعيته ـ من أسنانه ـ وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ـ يزيله ـ ويقول: «كيف يُفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رَباعيته، وهو يدعوهم إلى الله تعالى» فأنزل الله تعالى: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾(٢).

﴿ أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهم فإنهم ظالمون ﴾ [١٢٨] فالله سبحانه مالك أمرهم، إما أن يتوب عليهم إن أسلموا، أو يهلكهم بسبب ظلمهم.

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله: ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ [١٢٩].

---

(١) الأعراف: الآية ٥٤.

(٢) متفق عليه.

وكأن نهاية الآية تُشعر بتغليب جانبِ المغفرة والرحمة، فلما رأى ﷺ بعد المعركة جثث أصحابه من الشهداء، منتثرةً في الميدان، وقد مثل المشركون بها، فقطعوا الآذان، وجدعوا الأنوف، وبقروا البطون، وخاصة جثة حمزة رضي الله عنه، إذ أخرجت زوجة أبي سفيان كبده فلاكتها ثم لفظتها، غضب ﷺ، وقال: «لولا أن تحزن صفية ـ عمته عليه الصلاة والسلام ـ ويكون سنة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»، فأنزل الله في ذلك: ﴿ وإن عاقَبْتُم فعاقبوا بمِثْلِ ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبرْ وما صبرُك إلا بالله ولا تحزنْ عليهم ولا تَكُ في ضَيْـقٍ مما يمكرون. إن الله مع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون ﴾[1]، فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة[2]. وقال ﷺ: «إن الله كتب الإِحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْح، وليُحدَّ أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته»[3].

تحريـم الـربـا

والصبر والتقوى هما عدة المسلم في كل شؤون حياته، في المحنة والشدة، وفي الرخاء واليسر، فلا ينبغي للمسلم أن ينفك عنهما في جميع أحواله، وخاصة في مجال معاملته مع الناس في الشؤون المالية.

فالإنسان بفطرته يحب المال، وله سلطان كبير على الإنسان، فلا بد للمسلم أن يتحلى بالصبر والتقوى، ليكون ملتزماً في معاملاته المالية حدود شريعة الله تعالى، ولهذا التفتت الآيات الكريمة، وهي في خضم حديثها عن غزوة أحد، إلى المؤمنين تذكرهم بتقوى الله تعالى، وتنهاهم عن الأموال المحرمة المكتسبة بالوسائل غير المشروعة كالربا، بقوله عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [١٣٠]، فمعرفة الله تعالى بطاعته

(١) النحل: الآيات ١٢٦ ـ ١٢٨.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٠.
(٣) صحيح مسلم.

وتقواه في الرخاء تؤدي إلى نصره ومعونته في الشدة، وكلما كان المال المكتسب المحرم كثيراً، كان الصبر عنه أكبر، ومجاهدة النفس للإعراض عنه أعظم وأكبر، ولهذا جاء وصف الربا بالأضعاف المضاعفة، لأن الإعراض عنه في مثل هذه الحالة وتركه يحتاج إلى درجة عالية من الصبر والتقوى.

وكان المرابون في الجاهلية يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، فكلما عجز المدين عن الوفاء في أجله، أنظروه إلى أجل آخر، وأضعفوا عليه الربا حتى يصبح أضعافاً مضاعفة، كما تفعل الدول الغنية في العصر الحاضر مع الدول الفقيرة المستقرضة، فكلما عجزت عن تسديد ديونها في الأجل المسمى لها، أنظروها إلى أجل آخر وضاعفوا نسبة الفائدة، حتى أصبحت فوائد الربا أكثر بكثير من أصل الدين.

نشرت الصحف منذ عدة أيام تصريحاً لمدير البنك الإسلامي في جدة، ذكر فيه أن فوائد ديون الدول الإسلامية تضاعفت ١٨٠٪ في خلال سبع سنوات. فالربا المضاعف أضعافاً لا يزال سائداً بين المجتمعات البشرية كما كان في الجاهلية، ولا تزال حفنة من البشر تستغل حاجة الناس والمجتمعات أبشع استغلال بواسطة الربا المضاعف، ويقولون: إنهم يقدمون هذه القروض الربوية على شكل مساعدات. فالآية الكريمة تصف الواقع الذي كان عليه أهل الجاهلية، ولا يزال سائداً في العصر الحاضر. وليست الأضعاف المضاعفة شرطاً يتعلق به الحكم، كما زعم بعضهم، والنص الذي في سورة البقرة قاطع في حرمة الربا على الإطلاق، قليلاً كان أو كثيراً: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقيَ من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فَأْذَنوا بحربٍ من الله ورسوله، وإنْ تُبْتُم فلكم رؤوسُ أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون ﴾[1].

فلا حجة في قوله تعالى: ﴿ أضعافاً مضاعفة ﴾ لمستحلي قليل الربا، الذين يريدون في هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص ويتداروا به ليقولوا: إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة، أما الأربعة في المائة، والخمسة في المائة، والسبعة،

(١) البقرة: الآيتان ٢٧٨ - ٢٧٩.

والتسعة، فليست أضعافاً مضاعفة، وليست داخلة في نطاق التحريم[1].

لقد قرر سبحانه تحريم الربا مطلقاً بقوله: ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ وأعلن الحرب على أكلة الربا إذا أصروا عليه ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ وأمر المرابين إذا تابوا عن الربا أن يستردوا رؤوس أموالهم فقط دون أي زيادة ﴿ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون ﴾.

ونادى رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع بتحريم الربا وإلغاء كل ربا كان في الجاهلية سواء كان قليلاً أم كثيراً، فقال: «ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون»[2]، ولعن ﷺ آكل الربا وموكله وكل من يساعد عليه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه)[3].

وفي إيراد آية تحريم الربا في سياق آيات غزوة أحد إشارة إلى سبب هام من أسباب النصر، فالأمة التي ينتشر بين أبنائها التعامل بالربا، لا يؤيدها الله تعالى على عدوها ولا ينصرها، فهي أمة محاربة لله تعالى، لم تصبر عما حرمه عليها ولم تتق الله في معاملاتها.

المسارعة إلى التوبة

وتقوى الله تعالى في الحقيقة اتّقاءٌ لسخطه وغضبه وعذابه والنار ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ [١٣١]، فالنار أعدت في الأصل وهيئت للكافرين، ويمكن أن يعذب بها الفساق والفجار من المؤمنين، وخاصة أكلة الربا، المصرين على معاصيهم ﴿ وأطيعوا الله والرسول ﴾ في جميع الأوقات، في السلم والحرب، وفي الرخاء والشدة ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ [١٣٢].

ويلاحظ أن الآيات الكريمة تتبع أساليب متنوعة في التربية والتأديب، فتجمع

---

(١) انظر في ظلال القرآن ١/٤٧٣.

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) رواه أبو داود والنسائي، ورواه مسلم بدون: (وشاهديه وكاتبه).

بين التهديد والترغيب، بين التهديد بالعذاب والنار، وبين الترغيب بالرحمة والجنة ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾: أي بادروا وسابقوا إلى مغفرة من ربكم، بالتوبة عن ذنوبكم، فالمغفرة أمر مطلوب يستدعي المسارعة والمبادرة، إذ الإنسان لا يدري متى تنتهي حياته ويحضره أجله، فكأنه في سباق مع الموت، فعليه أن يبادر إلى التوبة قبل أن يقطعه الموت عنها، وقد سبق مثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾.

﴿ وجنة عرضها السموات والأرض ﴾: أي وإلى جنة واسعة كبيرة، عرضها عرض السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾(١)، فالمراد وصف الجنة بالسعة على طريقة التمثيل، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه(٢).

﴿ أعدت للمتقين ﴾ [١٣٣]: أي هيئت لهم، والآية تدل على أن التقوى يمكن للمذنبين أن يحصلوها بالتوبة والاستغفار.

ثم بيّنت الآيات بعض الخصال الطيبة الحسنة التي يتصف بها المتقون، على سبيل الحث على الاتصاف بها، بقوله تعالى: ﴿ الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء ﴾: أي ينفقون مالهم في حالتي الرخاء والشدة، وهذه الصفة تدل على صدق توبة آكل الربا، لأنه لا ينفق ماله لمساعدة الناس، بل يقدم ماله ليستغل حاجتهم وعسرهم، فيربو ماله على حساب عسرهم وشقائهم.

العفو عند المقدرة

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾: أي الذين يكظمون غيظهم، فلا ينساقون وراء غيظ نفوسهم للتشفي والانتقام، بل يعفون عمن ظلمهم واعتدى عليهم، وهما خصلتان رفيعتان من خصال الخير، لا يتحلى بهما إلا أقوياء الإرادة

---

(١) الحديد: الآية ٢١.

(٢) انظر تفسير البيضاوي وتفسير النسفي ١/٥٧٨.

والعزيمة، قال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(١)، وقال أيضاً: «من كظم غيظاً، وهو قادر على أن يُنفذه، دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ما شاء»(٢). ومر معنا منذ قريب أن النبي ﷺ غضب لما فعله المشركون بجثث أصحابه من شهداء أحد، وكيف كظم عليه الصلاة والسلام غيظه ونهى عن المثلة. وهذا يبيّن لنا الاتساق والاحتباك القائم بين الآيات الكريمة في السورة، فاختيار هذه الصفات لم يأت جزافاً، إنما جاء تتميماً لمعانٍ سبق الحديث عنها في السورة.

﴿ والله يحب المحسنين ﴾ [١٣٤]، الذين يحسنون إلى الناس بمساعدتهم عندما يكونون محتاجين، وبالعفو عن المسيء منهم عند القدرة على الانتقام.

عدم الإصرار على الذنوب

ومن صفات المتقين أيضاً عدم الإصرار على الذنب والمبادرة إلى التوبة، ومهما كان الإنسان صالحاً تقياً فهو غير معصوم عن الذنوب، وشأن المؤمن التقي إذا ما ضعف أمام نفسه، واقترف ذنباً، أن يتنبه إلى خطره، ويستشعر أثره السيء في نفسه وقلبه، فيبادر إلى التوبة والاستغفار بعد أن يقلع عن ذنبه، ويندم على فعله، قال تعالى: ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة ﴾: أي فعلة بالغة القبح كالزنا ﴿ أو ظلموا أنفسهم ﴾ بأي ذنب ﴿ ذكروا الله ﴾ وأنه سبحانه قائم عليهم مراقب لأعمالهم، وأنه سيحاسبهم على أعمالهم، فهو كقوله تعالى: ﴿ إن الذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾(٣) وهذا يدل على أن شعلة الإيمان لا تنطفىء بالذنب، فهي لا تزال في قلوبهم حية ندية.

وذكر الله تعالى يدفعهم إلى الاستغفار والتوبة ﴿ فاستغفروا لذنوبهم ﴾: أي لأجل ذنوبهم ﴿ ومن يغفرُ الذنوبَ إلا الله ﴾ فلا يغفرها أحد سواه جل وعلا، فالتائب من الذنب عنده سبحانه كمن لا ذنب له، بل إنه سبحانه يبدل السيئات

---

(١) متفق عليه، والصُّرَعة: الذي يصرع غيره بقوة جسده.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي، وحسنه.

(٣) الأعراف: الآية ٢٠١.

حسنات فضلاً منه ورحمةً، كما قال سبحانه: ﴿ إلا من تابَ وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿ ولَم يُصِرّوا على ما فعلوا ﴾ حث على المسارعة إلى التوبة، أي لم يقيموا على الذنوب بل سارعوا إلى التوبة والاستغفار ﴿ وهم يعلمون ﴾ [١٣٥] أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، فهم على رجاء كبير برحمته تعالى ومغفرته، قال تعالى: ﴿ قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[2].

ثم بين تعالى جزاء المتصفين بهذه الصفات الحسنة الرفيعة فقال: ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم ﴾ وقدمت الآيات ذكر المغفرة لأنها التي تتطلع إليها قلوب التائبين، وهي مغفرة من ربهم لا من غيره، فلا يستطيع أحد المتاجرة بالمغفرة كما كان القسس والرهبان يفعلون.

ولهم مع المغفرة ﴿ وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونِعْمَ أجر العاملين ﴾ [١٣٦] في طاعته تعالى، والمقبلين على فضله ورحمته.

وأنتـم الأعلـون

وعادت الآيات بعد هذا التوجيه التربوي الرفيع إلى غزوة أحد، عادت تواسي المؤمنين في مصابهم، وتمسح على جراحهم، وتشد من عزائمهم، بقوله تعالى: ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾: أي قد جرى نحو هذا على الأمم السابقة من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة على أعدائهم ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [١٣٧] فآثارهم لا زالت باقية تدل على شدة قوتهم، ومع ذلك أهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم لأنبيائهم، وإعراضهم عن دعوة ربهم.

﴿ هـذا بيانٌ للناس ﴾: أي هذا القرآن بيان للناس، يبين لهم الحق من

(١) الفرقان: الآية ٧٠.

(٢) الزمر: الآية ٥٣.

الباطل ﴿ وهدى وموعظةٌ للمتقين ﴾ [١٣٨] وفيه هداية وعبرة للمتقين، فالتقوى تجعل القلب ينفتح للنور والهداية والموعظة.

﴿ ولا تَهِنوا ولا تحزنوا ﴾: أي لا تضعفوا عن الجهاد، ولا تحزنوا على الشهداء ﴿ وأنتم الأَعْلُون إن كنتم مؤمنين ﴾ [١٣٩] فالإيمان يستوجب الثقة بالله تعالى، وبوعده بنصر أوليائه على أعدائه، ويمكن أن نقول أيضاً بقول سيد قطب رحمه الله: إن كنتم مؤمنين حقاً فأنتم الأعلون، وإن كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا، فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا، على أن تكون بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ وأنتم الأَعْلَوْن ﴾ بشارة كبيرة لهم بالنصر والغلبة. أو: وأنتم الأعلون شأناً، لأن قتالكم لله، وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، أو لأن قتلاكم في الجنة، وقتلاهم في النار[٢].

ولعل في الآية رداً على قائد جيش المشركين أبي سفيان عندما وقف بعد المعركة على جبل أحد، وصاح قائلاً: أنعمت فعال، وإن الحرب سجال، يوم بيوم، اعلُ هبل.

فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عمر فأجبه، فقل: الله أعلى وأجل، لا سواء قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»[٣].

وأضيف أيضاً في معنى (وأنتم الأعلون) ما ذكره سيد قطب رحمه الله بقوله: عقيدتكم أعلى، فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه، ومنهجكم أعلى، فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله، ودوركم أعلى، فأنتم الأوصياء على البشرية كلها، الهداة لهذه البشرية كلها، وهم شاردون عن النهج، ضالون عن الطريق[٤].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٠.
(٢) تفسير النسفي ١/٥٩٣.
(٣) سيرة ابن هشام ٣/٩٨.
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٠.

مداولة الأيام

وتابعت الآيات مواساة المؤمنين في مصابهم، وهذا يدل على مكانتهم الرفيعة عند الله تعالى: ﴿ إن يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فقد مسّ القومَ قَرْحٌ مثله ﴾: أي إن أصابتكم جراح وقتل في أحد، فقد أصاب أعداءكم جراح وقتْل أيضاً في غزوة بدر، فيوم لكم ويوم عليكم، ﴿ وتلك الأيامُ نُدَاوِلُها بين الناس ﴾ بعلمه سبحانه ومشيئته وحكمته. كما سبق في قوله تعالى: ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزِع الملك ممّن تشاء، وتُعِزُّ من تشاء، وتُذِل من تشاء بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير ﴾ ولله سبحانه في ذلك حكم كثيرة، فالحياة في الدنيا ابتلاء واختبار، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ وهم متصفون بالصبر والإيمان في حقيقة الأمر والواقع، كما سبق بذلك علمه ﴿ ويتخذَ منكم شهداء ﴾ يكرمهم بالشهادة في سبيله، عندما يبذلون أرواحهم في مرضاته، ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ [١٤٠] فتسليطهم على المؤمنين في بعض الأوقات لا يعني أنه سبحانه يحبهم، ولكنه تعالى قدر ذلك تمحيصاً للمؤمنين، ﴿ ولِيُمَحِّصَ الله الذين آمنوا ﴾: أي ليطهرهم وينقيهم من ذنوبهم، ويرفع درجاتهم بصبرهم على مصابهم ﴿ ويمحقَ الكافرين ﴾ [١٤١]: أي يهلكهم شيئاً فشيئاً، حتى يطهر الأرض من فسادهم وظلمهم.

لا تتمنوا لقاء العدو

وطريق الجنة محفوف بالمكاره، ولا بد من الابتلاء والاختبار للوصول إلى رضوان الله والجنة، قال تعالى: ﴿ أم حَسِبْتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصابرين ﴾ [١٤٢]: أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد، ولا شك أنه سبحانه يعلم المجاهدين والصابرين قبل الابتلاء، ولكنه سبحانه أراد وقوع الجهاد والصبر، ويكون التطابق بين العلم والمعلوم.

ونصبت (ويعلمَ) بإضمار ـ أن ـ والواو للجمع، وقُرىء بالرفع، على أن الواو للحال، كأنه قال: ولما تجاهدوا، وأنتم صابرون(١).

(١) انظر تفسير البيضاوي ١/٥٩٦.

وقد تكرر هذا المعنى في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلَوْا من قبلكم، مَسّتهم البأساء والضراء وزُلزِلوا حتى يقولَ الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب ﴾[1]، وقوله أيضاً: ﴿أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾[2].

وكان بعض الصحابة الذين ما شهدوا بدراً يتمنون لقاء العدو لينالوا شرف جهادهم مع رسول الله ﷺ، فأشهدهم الله يوم أحد، فلم يثبتوا إلا من شاء الله، فأنزل الله: ﴿ ولقد كنتم تَمَنَّوْن الموتَ من قبل أن تَلْقَوْه ﴾: أي كنتم تمنون أسباب الموت، وهي القتال والجهاد، من قبل أن تشهدوا يوم أحد ﴿ فقد رأيتموه ﴾: أي رأيتم ما كنتم تتمنون ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ [١٤٣]: أي تشاهدون قتْل من قُتل من إخوانكم[3].

فالآية تدل على كراهة تمني لقاء العدو، فقد لا يثبت المتمنّي عند اللقاء، كما حدث في أحد، ولهذا نهى النبيّ ﷺ عن تمني البلاء بالشدائد ولقاء العدو، فقد يضعف الإنسان ولا يصبر، فقال: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[4].

وعاد ﷺ رجلاً قد جُهد حتى صار مثل الفرخ، فقال له: «أما كنت تدعو، أما كنت تسأل ربك العافية؟ قال: كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال ﷺ: سبحان الله! إنك لا تطيقه، أو لا تستطيعه، أفلا كنت تقول: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[5].

---

(١) البقرة: الآية ٢١٤.
(٢) العنكبوت: الآيتان ٢ ـ ٣.
(٣) تفسير الخازن ١/ ٥٩٧.
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه مسلم والترمذي.

إشـاعــة كـاذبــة

عندما خالف الرماة أمر النبي ﷺ، وترك أكثرهم مواقعهم، واستغل فرسان المشركين خلو الجبل، وحملوا على المسلمين من خلفهم، ووقع الاضطراب في صفوف المسلمين، وأصيب النبي ﷺ، ووقع في الحفرة ـ كما مر معنا ـ تمكن أحد المشركين، وهو عبد الله بن قمئة، من قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه حامل راية المسلمين، فسقطت على الأرض، وصاح: إني قتلت محمداً، فنظر الصحابة إلى النبي ﷺ، فلم يروه، لوقوعه في الحفرة، فوقع الضعف والوهن في عزائمهم، وتراجع أكثرهم عن القتال، إلا قليلاً ثبتوا حول رسول الله ﷺ، حتى كشفوا معه عليه الصلاة والسلام جمع المشركين، وأنزل الله تعالى قوله:

﴿ وما محمد إلا رسول قد خَلَتْ من قبله الرسل ﴾: أي مضت الرسل من قبله، فهو عليه الصلاة والسلام ليس بِدْعاً بينهم، ويمكن أن يصاب بالقتل أو الموت مثلهم ﴿ أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ﴾: أي رجعتم القهقرى منهزمين أو مرتدين، فما كان ينبغي لهم أن ينهزموا، ولو قتل عليه الصلاة والسلام، فالنبوة لا تدرأ الموت عن الأنبياء، والدين لا يزول بموتهم، وقد ثبت بعض الصحابة عندما سمع هذه الإشاعة الكاذبة، وقاتلوا حتى استشهدوا رضي الله عنهم، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على من قتله النبي ﷺ في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمُّوا وجه نبي الله ﷺ»(1).

وفشا في الناس أن محمداً ﷺ قد قتل، فقال بعض المسلمين: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وجلس بعض الصحابة وألقوا بأيديهم، وقال أناس من المنافقين: إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول، وقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما

---

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب المغازي رقم ٤٠٧٤.

يقول هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل(١).

﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يَضُرَّ الله شيئاً ﴾ بل يَضُرَّ نفسه ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ [١٤٤] على نعمة الإسلام بالثبات عليه(٢)، فالهداية إلى الإسلام من أعظم النعم، والشكر على هذه النعمة بالتمسك بها والثبات عليها.

شجاعة الصدِّيق وثباته

كان نزول هذه الآية بسبب غزوة أحد رحمة من الله تعالى بالصحابة رضي الله عنهم، وسبباً لتثبيتهم عندما نزل بهم الحادث الجلل الذي زلزلهم زلزالاً شديداً، وهو موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما نزل بالإسلام حادثٌ أعظم منه، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أشجعهم قلباً، وأثبتهم نفساً، قال القرطبي رحمه الله: هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراءته، فإن الشجاعة والجرأة حدها ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ فظهرت عنده شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وسكت عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية(٣).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قُبض رسول الله ﷺ، وأبو بكر عند امرأته ابنة خارجة بالعوالي، فجعلوا يقولون: لم يمت النبي ﷺ، إنما هو بعض ما كان يأخذه عند الوحي، فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه، وقبَّل بين عينيه، وقال: أنت أكرم على الله أن يُميتك مرتين، قد والله مات رسول الله ﷺ وعمر في ناحية المسجد يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير، وأرجلَهم، فقام أبو بكر فصعد المنبر، فقال: من كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ﴿ وما محمدٌ إلا

(١) تفسير الخازن ١/٥٩٩ والحديث في البخاري.
(٢) تفسير البيضاوي ١/٦٠٠.
(٣) تفسير القرطبي ٤/٢٢٢.

رسولٌ قد خَلَتْ من قبلِه الرسلُ أفإنْ مات أو قُتِل انْقَلَبْتُم على أعْقابِكم. . . ﴾ الآية، قال عمر: فلَكأنِّي لم أقرأْها إلا يومئذ[1].

فهْـم خـاطـىء

وقد أحسن سيد قطب رحمه الله عندما قال: وكأنما كان الله سبحانه يُعد الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى - حين تقع - وهو سبحانه يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم، فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب، وأن يصلهم به هو، وبدعوته الباقية، قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول[2].

ولكنه رحمه الله أخطأ الفهم، وابتعد عن الصواب بعداً كبيراً عندما قال: وكأنما أراد الله سبحانه بهذه الحادثة، وبهذه الآية أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي ﷺ، وهو حي بينهم، وأن يصلهم بالنبع، النبع الذي لم يفجره محمد ﷺ، ولكن جاء فقط ليومىء إليه ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق، كما أومأ إليه من قبله من الرسل، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه[3].

وليته غفر الله له لم يستنتج مثل هذا الاستنتاج الباطل من الآية، كيف تجرأ على الله تعالى وزعم أنه سبحانه يريد أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي ﷺ!؟ مع أنه سبحانه أمرنا في كثير من آياته القرآنية، وفي ما كلفنا به من الأعمال والعبادات أن نتعلق برسول الله ﷺ حباً له عليه الصلاة والسلام، وطاعةً لأوامره، واقتداءً بسنته، وإكثاراً لذكره بالصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه، ألم يأمرنا بالصلاة والسلام عليه، وقرن ذكره بذكره سبحانه في الشهادتين والأذان، وكلّفنا بالصلاة والسلام عليه ونحن بين يديه تعالى في الصلاة، ألم يقل الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ قل إن كنتم تُحِبّون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾، ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾، إن

(١) رواه البخاري والنسائي وابن ماجه.
(٢) في ظلال القرآن ١/٤٨٦.
(٣) في ظلال القرآن ١/٤٨٦.

محبة رسول الله ﷺ عبادة يُتقرب بها إلى الله تعالى، وكلما ازداد المسلم حباً له عليه الصلاة والسلام ازداد قرباً من الله تعالى، بصريح قوله سبحانه: ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادَها ومساكنُ تَرْضَوْنها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾(١).

الكتاب المؤجل

جعل الله تعالى لموت كل مخلوق حي أجلاً معيناً، لا يتأخر ولا يتقدم، فقال جل جلاله: ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾: أي لا يموت أحد إلا بقدر قدره الله تعالى في سابق علمه وكتبه، وفي هذا تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه، ولقد كان المعنى ماثلاً في قلوب الصحابة في حروب الفتح، وله أثر كبير في شجاعتهم وإقدامهم رضي الله عنهم، فعندما وصلوا بعد القادسية إلى شاطىء دجلة، ترددوا في عبوره إلى الشاطىء المقابل لفتح المدائن، فقال رجل من المسلمين، وهو حِجْر بن عدي: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو إلا هذه النطفة، يعني دجلة، ﴿ وما كان لنفس أن تموتَ إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾ ثم أقحم فرسه دجلة، فلما أقحم، أقحم الناس، فلما رآهم العدو... هربوا(٢).

﴿ ومن يُردْ ثواب الدنيا نُؤْته منها ﴾: أي من أراد بجهاده وطاعته الدنيا نؤته منها ما نشاء، وفي الآية تعريض بالرماة الذين تركوا مواقعهم من أجل الغنائم ﴿ ومن يُردْ ثوابَ الآخرة نؤته منها ﴾: أي نجعل ثوابه فيها، فالأمر منوط بنية الإنسان، فإن كان يريد بعمله الدنيا، فليس له جزاء إلا فيها، وإن أراد بعمله الآخرة، فجزاؤه أيضاً فيها، كما قال تعالى: ﴿ من كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له

---

(١) التوبة: الآية ٢٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٢٣.

في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾[1]، وقوله أيضاً: ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾[2].

وقال تعالى هنا في ختام الآية: ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ [١٤٥] كما في خاتمة الآية التي قبلها، ودل ذلك على أنه لا بد للشكر من الثبات على الإسلام مع إخلاص النية لله تعالى وحده والتجرد عن الدنيا.

الصبـــر والنصـــر

ولا بد لإحراز النصر من الصبر، ولهذا حثهم الله تعالى عليه، وذكر لهم كيف كان أسلافهم من أتباع الأنبياء يصبرون على شدائد القتال وآلامه، فقال: ﴿ وَكَأَيِّن من نبي قاتل معه رِبِّيون كثيرٌ ﴾: أي كم من نبي قاتل معه جماعات كثيرة، أو قاتل معه أبرار أتقياء ﴿ فَما وَهَنوا لما أصابهم في سبيل الله ﴾ فصبروا وما عجزوا ولا جبنوا بسبب ما أصابهم في سبيل الله من القتل والجراح ﴿ وما ضَعُفوا ﴾ وما فتروا عن القتال وانقطعوا عن الجهاد، وفي هذا تعريض بالذين ضعفوا عن القتال في أحد، وهو أسلوب رفيع، يؤدب الله تعالى به أصحاب النبي ﷺ والمؤمنين.

﴿ وما استكانوا ﴾: أي وما ذلوا لعدوهم، وما خضعوا له ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ [١٤٦] الذين يصبرون على شدائد القتال في سبيل الله تعالى.

﴿ وما كان قولهم ﴾ في مثل هذه المواطن ﴿ إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾: أي وتجاوُزَنا حد العبودية بمعاصينا، قدموا في دعائهم الاستغفار من الذنوب والتذلل لله تعالى، ثم سألوه بعد ذلك الثبات والنصر فقالوا: ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ في مواجهة الأعداء ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [١٤٧].

---

(١) الشورى: الآية ٢٠.

(٢) الإسراء: الآيتان ١٨ ـ ١٩.

فاستجاب الله تعالى دعاءهم بسبب إخلاصهم وثباتهم وصبرهم ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ وهو النصر والغنيمة ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ وهو الجنة وما فيها من نعيم، ووصفه بالحسن لأنه دائم لا زوال له ولا انتهاء، ولا تعتريه المنغصات والمكدرات، ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ [١٤٨] الذين يكونون مثلهم في الصبر والثبات والإخلاص. لقد كان لهذا التوجيه الرباني أكبر الأثر في جهاد الصحابة رضي الله عنهم، في حياته عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته، حتى تمكنوا رضي الله عنهم من النصر والظفر في حروب الفتح على أعظم الدول وأقوى الجيوش.

الرعـب من جنود الله تعالى

حاول اليهود والمنافقون في المدينة المنورة استغلال مصاب المسلمين في أحد، لزعزعة صف المسلمين وتشكيكهم في دينهم، فأنزل الله عز وجل قوله الكريم يحذر المسلمين منهم: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردّوكم على أعقابكم ﴾ إلى الكفر ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ [١٤٩] فترجعوا إلى الكفر وقد خسرتم خير الدنيا والآخرة ﴿ بل الله مولاكم ﴾: أي متولي أموركم، وهو سبحانه سينصركم ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ [١٥٠] فلا تنصرفوا إلى غيره تعالى، تمسكوا بحبله واعتصموا بدينه.

ثم أخبرهم سبحانه أنه سخر لهم جندياً من جنوده، وهو الرعب، الذي سلطه على قلوب أعدائهم ﴿ سنُلقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ ﴾: أي الخوف والفزع ﴿ بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ بسبب إشراكهم بعبادته سبحانه آلهة، ما أنزل الله فيها حجة وبرهانـاً يدل على استحقاقها للعبادة ﴿ ومأواهم النار ﴾ يوم القيامة ﴿ وبئس مثوى الظالمين ﴾ [١٥١]. والمثوى: مكان الإقامة، أي: وبئس المكان الذي يقيمون فيه، وهو جهنم. أعاذنا الله منها.

ولقد نصر الله تعالى بالرعب النبي ﷺ وأصحابه في كثير من المشـاهد والمعارك، فبعد غزوة أحد وارتحال المشركين إلى مكة، ندموا في أثناء الطريق، وهموا بالرجوع إلى المدينة، وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبق إلا

الشريد تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم حتى رجعوا عما هموا به[1].

ونصرهم الله تعالى بالرعب على يهود بني قريظة عندما تحصنوا بحصونهم المنيعة بعد غزوة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهَرُوهم من أهل الكتاب من صَياصِيهم وقذفَ في قلوبهم الرعبَ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾[2]، ولما جمع الروم جيوشهم في تبوك للهجوم على المسلمين في المدينة المنورة، ليقضوا على الإسلام والمسلمين، استنفر النبي ﷺ أصحابه وخرج إليهم، ولما سمعوا بخروجه خافوا وتراجعوا، ونصر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالرعب من مسيرة شهر، قال ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعْطَهُنّ أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[3].

عتاب المنهزمين

اكتفت الآيات السابقة التي مرت معنا بتعريض غير مباشر بالصحابة رضي الله عنهم، وركزت على مواساتهم في مصابهم وتثبيتهم ورفع معنوياتهم، فلم تبادر إلى لومهم وعتابهم، بل بادرت إلى مواساتهم وتثبيتهم، وهذا يدلنا أولاً على المكانة الرفيعة التي لهم عند الله تعالى رضي الله عنهم، ويدلنا ثانياً على الأسلوب الذي ينبغي اتباعه في مثل هذه الأحوال، فلا ينبغي المبادرة إلى لوم المنهزمين وتوبيخهم، فإن هذا يزيد من ضعفهم وتخاذلهم، ويعمق آثار المصيبة، ويضاعف آلام الجراح، ويساعد العدو ويقويه، ويزيد من استفادته فيما أوقعه في المصابين.

وبعد التثبيت والمواساة وتضميد الجراح، شرعت الآيات الكريمة باللوم والعتاب والكشف عن أسباب الخسارة الكبيرة التي حلت بهم، فهو أمر لا بد منه

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٢٣٢.

(٢) الأحزاب: الآية ٢٦.

(٣) متفق عليه.

للأمة التي تريد أن تنهض من كبوتها، وتستفيد من عثرتها، لا بد من إظهار المسؤولين عما حدث، ومواجهتهم بأخطائهم مهما كانت مراتبهم ومكانتهم، فالسكوت على الخطأ دون التعريف به ليُحذر، خطأ أكبر.

وهو أمر واقع في كثير من المجتمعات الإسلامية، وهو من أهم أسباب تخلف المسلمين ومعاناتهم، لماذا لا يحاسب المسلمون أنفسهم ويواجهون المخطئين بأخطائهم، كما يفعل كثير من الكفار في مجتمعاتهم؟! ولهذا تتكرر الأخطاء وتتراكم في المجتمعات الإسلامية، بينما تبقى المجتمعات الكافرة يقظة حذرة، تحاسب المخطىء، وتحمله نتيجة خطئه، فلا يتكرر الخطأ كما يتكرر في مجتمعاتنا.

فلننظر إلى الآيات القرآنية الكريمة كيف واجهت الصحابة هذه المواجهة الصريحة، وكيف حملتهم المسؤولية عما حدث في أحد، مع ما لهم رضي الله عنهم من مكانة رفيعة وسبْق إلى الإسلام والجهاد.

إلـى قلـب المعركـة

عادت الآيات إلى قلب المعركة تخاطب الصحابة رضي الله عنهم، وتصف الأحداث وتحللها، وتواجههم بمواقفهم فيها، وبدأت تذكرهم بفضله سبحانه عليهم عندما نصرهم على أعدائهم في أول المعركة، قبل أن يخالف الرماة أمر الرسول ﷺ: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ بالنصر والتأييد بشرط التقوى والصبر ﴿إذ تَحُسّونهم بإذنه﴾: أي تقتلونهم بمشيئته تعالى وقدرته، فعن البراء رضي الله عنه قال: لما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددْن في الجبل، رفعن عن سوقهن، قد بدت خلاخلهن[1]، وعن الزبير بن العوام: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند[2] وصواحباتها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن كثير ولا قليل، ومالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل،

(١) رواه البخاري.

(٢) هي هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان. والخدم: الخلاخل.

فأوتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم[1].

﴿ حتى إذا فشِلتم ﴾: أي طرأ عليكم الفشل، وهو الجبن والضعف بسبب الاختلاف والعصيان ﴿ وتنازعتم في الأمر ﴾: أي اختلفتم في تنفيذ أمر النبي ﷺ والمراد: الرماة الذين كانوا على الجبل ﴿ وعصيتم ﴾: أي خالفتم أمر الرسول ﷺ ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ من هزيمة عدوكم وانتصاركم عليهم.

والمتأمل للآية لا بد أن يلاحظ توجيه الخطاب لجميع الصحابة، وتحميلهم جميعاً المسؤولية، مع أن الذين عصوا وخالفوا هم الرماة فقط، فالمسؤولية إذن جماعية، ولهذا شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كما مر معنا ـ.

ثم واجهتهم الآية بما كانوا يضمرونه في داخل أنفسهم، وكشفت حقيقة مقاصدهم، بقوله تعالى: ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ وهم الذين رغبوا في الغنيمة حين رأوا هزيمة المشركين في أول الأمر ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ﴾ في جهاده وقتاله ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾: أي ثم كفكم عن المشركين بعد أن كنتم مسلطين عليهم ليختبركم، وتحول وجه المعركة لصالح المشركين، وهذا يدل على تمام مشيئته تعالى وقدرته جل جلاله، ويدل أيضاً على ما للنوايا الطيبة الحسنة من أثر في استنزال معونته تعالى ونصره، وما للنوايا السيئة من أثـر في الخذلان والهزيمة.

وبعد أن بيّنت لهم الآية سبب تحول المعركة لصالح المشركين، وواجهتهم بالحقيقة وحملتهم مسؤولية ما حدث، أخبرتهم بعفوه سبحانه وتعالى عنهم تكرمةً لهم رضي الله عنهم وإظهاراً لفضله سبحانه عليهم ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾: أي غفر لكم ما صنعتم من المخالفة والمعصية وترك القتال والفرار من وجه العدو ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ [١٥٢].

ثم وصفت الآيات أحوالهم بعد المخالفة والمعصية، بقوله تعالى: ﴿ إذ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٢٦.

تُصْعِدون ﴾: أي تمضون في الأرض منهزمين ﴿ ولا تَلْوُون على أحدٍ ﴾: أي لا تعرجون وتقفون على أحد، ولا يلتفت بعضكم إلى بعض، وهذا يدل على شدة الخوف والاضطراب الذي أصابهم.

شجاعة النبي ﷺ وثباته

﴿ والرسولُ يَدْعوكم في أُخْراكم ﴾: أي من ورائكم، فقد بقي ﷺ في موقفه من أرض المعركة ثابتاً لم يتزعزع ولم يتزحزح، وهو يدعو أصحابه ليرجعوا إلى القتال، قال ابن عباس وغيره: كان من دعاء النبي ﷺ: «أي عباد الله ارجعوا»(١).

وهذا يبيّن لنا مدى شجاعته عليه الصلاة والسلام وثباته، فلقد فر عنه أكثر أصحابه حتى لم يبق معه غير اثني عشر رجلاً كما قال القرطبي رحمه الله(٢)، وذكرت بعض الروايات أنه لم يبق بجانب النبي ﷺ في بعض الأحوال سوى اثنين من أصحابه، هما طلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وأصيب طلحة وشلت يده وهو يقي رسول الله ﷺ، وكان سعد يرمي دونه عليه الصلاة والسلام، وهو يناوله السهام، ويقول: «ارم فداك أبي وأمي»(٣).

فالنبي ﷺ لم يهزم في أحد، وظل ثابتاً في وجه المشركين يقاتلهم بمن ثبت معه من أصحابه، حتى تركوا أرض المعركة وانصرفوا عن القتال، والقول بأنه عليه الصلاة والسلام هزم في أحد خطأ فادح مجانب للصواب، وفيه سوء أدب مع الرسول ﷺ الذي ما تراجع أمام عدو، ولا هزم في معركة. وما أصابه عليه الصلاة والسلام من جراح في المعركة، وما نزف من دمائه، ومصابه فيمن استشهد من أصحابه، لم يؤثر على قوة قلبه ورباطة جأشه، حتى إنه عليه الصلاة والسلام لما وقف بعض المشركين في أعلى الجبل ندب أصحابه لإنزالهم قائلاً: «لا ينبغي لهؤلاء أن يعلونا» ولما صاح أبو سفيان مفتخراً متباهياً: اعل هبل، أمرهم ﷺ أن يردوا عليه قائلين: «الله أعلى وأجل»، ولما قال: لنا العزى ولا عزى لكم،

(١) (٢) تفسير القرطبي ٤/٢٤٠.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٢٧، وكل هذه الأحاديث في الصحيحين.

أمرهم ﷺ أن يقولوا له: «الله مولانا ولا مولى لكم»(١).

وخرج ﷺ في اليوم الثاني بأصحابه في أثر المشركين ليردهم عن المدينة المنورة إن حدثتهم أنفسهم بالهجوم عليها، حتى بلغ حمراء الأسد.

وكل ذلك يؤكد لنا أن أحداث أحد ومصابه ﷺ فيها لم ينل من عزيمته ولم يؤثر على معنوياته ﷺ.

وتابعت الآيات مواجهة الصحابة رضي الله عنهم بقوله تعالى: ﴿ فأثابكم غَمّاً بغم ﴾: أي فجازاكم هماً وحزناً على ما فاتكم من نصر وغنيمة، متصلاً بهمّ وحزن بسبب ما أصابكم من جراح وقتل.

﴿ لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ﴾: أي لكي يكون ذلك لكم درساً وعبرة وتجربة، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ﴿ ولا ما أصابكم ﴾ من المضار(٢) ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ [١٥٣] لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

نعاس وأمن في الميدان

ومن لطفه سبحانه بأصحاب النبي ﷺ، وفضله عليهم، بعد أن أصيبوا، ما أخبر عنه بقوله الكريم: ﴿ ثم أنْزَل عليكم من بعد الغم أمنةً نُعاساً ﴾ حتى نام أكثرهم، وشعروا بهذا بالأمن، فسكنت قلوبهم، واطمأنت نفوسهم، فإنما ينعس من يأمن، والخائف لا ينام، وقد حدث مثل هذا في بدر، إلا أنه كان قبل القتال قال تعالى: ﴿ إذ يُغَشِّيكم النعاسَ أمنةً منه ويُنَزِّل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ﴾ الآية(٣).

قال أبو طلحة الأنصاري: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً(٤).

(١) رواه أحمد في المسند من حديث البراء، والبخاري في صحيحه في كتاب المغازي.
(٢) تفسير النسفي ١/٦٠٨.
(٣) الأنفال: الآية ١١.
(٤) رواه البخاري في صحيحه.

﴿ يغشى طائفةً منكم ﴾ وهم المؤمنون المخلصون ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ لم يغشهم النعِاس، بسبب خوفهم على أنفسهم، فلا همّ لهم إلا أنفسهم، وهم المنافقون الذين كان لهم وجود كبير في مجتمع المدينة المنورة، وقد أظهر كثير منهم نفاقهم بعد غزوة أحد.

﴿ يظنون بالله غير الحق ﴾: أي يسيئون الظن بالله تعالى، وهو أنه سبحانه لا ينصر نبيه ﷺ وأصحابه ﴿ظن الجاهلية﴾ أي: كظن أهل الجاهلية.

﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء؟ ﴾ وهو استفهام إنكار ونفي، أي ما لنا أمر يطاع، يعرِّضون بالنبي ﷺ عندما استشار أصحابه قبل الخروج من المدينة، فأشار عليه زعيم المنافقين ابن أبي بالبقاء فيها، والتحصن في بيوتها، لكنه عليه الصلاة والسلام أخذ برأي شباب الصحابة، وخرج إلى أحد ـ كما مر معنا ـ.

﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾: أي البقاء أو الخروج، والنصر أو الهزيمة، والحياة أو الموت، كلها بيده سبحانه، وبمشيئته وقدرته جل وعلا.

﴿ يُخفون في أنفسهم ما لا يُبدون لك ﴾ فسريرتهم تخالف علانيتهم، يخفون الكره والحقد على النبي ﷺ خلاف ما يظهرون من المودة والمحبة، ﴿ يقولون ﴾ لبعضهم ﴿ لو كا لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هٰهنا ﴾: أي لو أن محمداً ﷺ أطاعنا، ولم يخرج من المدينة، ما قتل من قتل منا.

﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾، فقدر الله تعالى واقع لا محالة، والموت الذي قدره سبحانه لا بد منه، كما قال سبحانه: ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ الآية(١)، فلو لم يخرج النبي ﷺ إلى أحد لخرج الذين قدر الله تعالى موتهم إلى مصارعهم ليموتوا فيها، فلا راد لقضائه جل وعلا، ولا معقب لحكمه، وما حدث في أحد قضاه الله تعالى وقدره ابتلاءً وتمحيصاً.

---

(١) النساء: الآية ٧٨.

﴿ وليبتليَ الله ما في صدوركم ﴾ من إخلاص أو نفاق ﴿ وليمحص ما في قلوبكم ﴾: أي ليكشف ما فيها، فالتمحيص هنا الكشف والتمييز[1].

﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ [١٥٤] فهو سبحانه لا يحتاج إلى الابتلاء، ولكنه قدره بحكمته إظهاراً لحال المنافقين، وتمييزاً لهم عن المؤمنين.

العفـو عن المنهزميـن

وأكدت الآيات مرة ثانية عفوه سبحانه عن الصحابة الذين تركـوا ميدان المعركـة في أحد وانهزموا، بعد ما ذكرت من شأن المنافقين، وكأنها تحثهم وتشجعهم على ترك النفاق، وتحسين الاعتقاد، حتى يشملهم عفو الله تعالى ومغفرته: ﴿ إن الذين تَوَلَّوْا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ في أحد ﴿ إنما استَزَلّهم الشيطان ﴾: أي تمكن الشيطان من إيقاعهم بالزلل، وهو المخالفة والمعصية ﴿ ببعض ما كسبوا ﴾ من الذنوب في مخالفة أمر النبي ﷺ بالثبات، فجرهم ذلك إلى الهزيمة ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ وهذا يقوي رجاء المذنبين في عفو الله تعالى، ويشجعهم على التوبة، وتحسين الظن به سبحانه، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿ إن الله غفور حليم ﴾ [١٥٥] يغفر الذنوب، ولا يعاجل المذنبين بالعقوبة كي يرجعوا إلى الله ويتوبوا ويستغفروا. فما أعظم العبر والدروس المستفادة من غزوة أحد.

أثر الإيمان بالقضاء والقدر

ويحسن بعد فضح المنافقين تحذير المؤمنين من التشبه بهم، والتأثر بأقوالهم وإشاعاتهم التي كانوا يشيعونها في المدينة المنورة. قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ﴾ وهم المنافقون ﴿ وقالوا لإخوانهم ﴾: أي قال المنافقون في حق إخوانهم ولأجلهم ﴿ إذا ضربـوا في

(١) انظر روح المعاني ٤/٩٧.

الأرض﴾: أي سافروا ﴿أو كانوا غُزّىً﴾ جمع غاز، أو كانوا غزاة مجاهدين، فأصابهم موت أو قتل، ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾: أي لو كانوا مقيمين عندنا ما أصابهم موت وقتل، ﴿ليجعلَ الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾: أي لا تقولوا مثل هذا القول، فإنه يؤدي إلى الحسرة والألم في القلوب.

وهذا يبين لنا الآثار الطيبة للإيمان بالقضاء والقدر في نفوس المؤمنين. ففيه تخفيف لآلام المصابين وأحزانهم، فالرضا بقضاء الله وقدره يزيل عن القلوب والنفوس أمثال الجبال من الهموم والأحزان، ويضع مكانها راحة وسكينة، لا يحس بها ويتذوقها إلا المؤمنون بالله تعالى، المستسلمون لقضائه وقدره، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»(١).

﴿والله يحيي ويميت﴾ فالحياة والموت بيده سبحانه ﴿والله بما تعملون بصير﴾ [١٥٦] لا يخفى عليه شيء منكم، فله كمال القدرة والعلم، جلا جلاله.

ويجعل الإيمان بالله تعالى وقضائه وقدره نظر المؤمن إلى الموت مختلفاً عن نظر الكافر إليه، فالموت في نظر المؤمن رحمة ومغفرة وانتقال إلى دار هي خير من دار الدنيا، بينما الموت في نظر الكافر انتهاء وانقطاع عن الدنيا ومتاعها ولهذا قال تعالى: ﴿ولئن قُتِلتم في سبيل الله أو مُتُّم لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خير مما يجمعون﴾ [١٥٧] من حطام الدنيا الفانية ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ [١٥٨]، فالإنسان لا ينتهي بالموت، بل هو البداية لما بعده من حساب وجزاء ومسؤولية.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

خُلُق النبي ﷺ

وبعد بيان كل هذه الفوائد والعبر والدروس، التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تبين له كيف يعامل أصحابه بعد غزوة أحد، وتذكره بفضل الله تعالى عليه بما جعل في قلبه الشريف من شفقة على عباد الله ورأفة بهم: ﴿ فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ﴾ فقد جبله الله تعالى على الرحمة والسماحة واللطف، هذه حقيقته عليه الصلاة والسلام حقيقة جوهره الشريف، ومعدنه الكريم ﷺ.

فأخلاقه الكريمة لا تكلف فيها ولا تصنع، بل هي فطرة فطره الله تعالى عليها، وجِبلَّةٌ جبُل عليها، وهي من الله جل جلاله لا من غيره، قال الحسن البصري رحمه الله: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به(١).

وهذا الخلق الكريم هو السبب الرئيسي لتعلق الصحابة به عليه الصلاة والسلام وشدة محبتهم له رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وكانت أخلاقه الكريمة سبباً لهداية الكثير منهم للإسلام. وصدق الله تعالى في قوله الكريم: ﴿ ولو كنت فظاً ﴾: أي خشناً في كلامك ومعاملتك ﴿غليظ القلب﴾ جافي الطبع قاسي القلب ﴿ لانفضّوا من حولك ﴾: أي لابتعدوا عنك، وأعرضوا عن دعوتك، وما تعلقوا هذا التعلق الشديد بك.

فقد كانوا رضي الله عنهم شديدي المحبة له عليه الصلاة والسلام والتعلق به، بلغوا الغاية في هذا الأمر، حتى قال عروة بن مسعود الثقفي عندما أرسلته قريش ليكلم النبي ﷺ، وهو في الحديبية:

والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداًﷺ، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له(٢).

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٣١.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري.

وتدلنا الآية على أن الداعية إلى الله ينبغي أن يكون رحيماً بالناس، لطيفاً بهم يتحبب إليهم بلين الكلام والمعاملة الحسنة، ويتجاوز عن أخطائهم، ويتحمل جفوتهم وقسوتهم، وكان ﷺ يوصي أصحابه عندما يرسلهم لدعوة الناس بقوله: «يسروا ولا تعسروا وبشروا وسكنوا ولا تنفروا»[1].

وقوله سبحانه: ﴿ فاعف عنهم ﴾: أي عما صدر منهم في حقك يوم أحد، عندما فروا عنك وتركوك تواجه خطر المشركين ﴿ واستغفر لهم ﴾: أي وادع الله تعالى ليغفر لهم، فدعاؤك مستجاب لا يرد.

﴿ وشَاوِرْهُم في الأمر ﴾ تطييباً لنفوسهم، وتشريعاً لمبدأ الشورى في الأمة، ﴿ فإذا عزمت ﴾ على أمر بعد الشورى فامضه دون تردد، ﴿ فتوكل على الله ﴾ في إمضاء أمرك، ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ [١٥٩] عليه وحده سبحانه، ويوفقهم ويسددهم.

والعجيب أن هذه الصفات الكريمة التي وُصف بها ﷺ في القرآن الكريم ذكرت في التوراة والإنجيل قبل طمسها وإخفائها.

ففي أثناء حروب الفتح لبلاد الشام ومصر، وقع في يد عبد الله بن عمرو بن العاص زاملة - أي صرة - فيها نسخ عن التوراة والإنجيل التي كانت متداولة بين أهل الكتاب، وكان عبد الله أحياناً يحدث الناس عما وجد فيها. ولما سأله عطاء بن يسار قائلاً: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح به أعيننا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من رواية أنس بلفظ: «يسِّروا ولا تعسِّروا وسكِّنوا ولا تنفروا»، ومن رواية أبي موسى بلفظ: «بشِّروا ولا تنفِّروا ويسِّروا ولا تعسِّروا».

(٢) رواه البخاري في صحيحه.

ولا شك أن هذه الآية الكريمة عندما وجهت النبي ﷺ هذا التوجيه الكريم، أمرته أن يفعل ما يجعل أصحابه يزدادون حباً له، وتعلقاً به عليه الصلاة والسلام، فالعفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم، مع اللين واللطف بهم، كل ذلك يجعلهم يزدادون تعلقاً به عليه الصلاة والسلام، وحباً له، وإقبالاً عليه، خلافاً لما استنتجه سيد قطب غفر الله له ـ كما مر معنا ـ.

والتوكل يجب أن يكون على الله تعالى وحده لأن الأمر بيده، والنصر بمشيئته وقدرته، ﴿ إن ينصرْكم الله فلا غالبَ لكم وإن يخذلكم ﴾ ويمنع عنكم تأييده ونصره ﴿ فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾: أي لا أحد ينصركم بعد أن منع الله عنكم النصر ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [١٦٠] مع الأخذ بأسباب الوقاية والسلامة، فالتوكل على الله تعالى لا يمنع من الحذر والحيطة والأخذ بالأسباب المؤدية إليهما.

تحريـــم الغلـول

ويبدو أن الرماة عندما تسرعوا بترك مواقعهم من أجل الغنيمة، كانوا يظنون أن النبي ﷺ سيحتفظ بشيء من الغنيمة لنفسه، وأنه لن يقسمها بينهم، فأنزل الله تعالى قوله الكريم يبرىء النبي ﷺ من الاحتفاظ بشيء من الغنيمة لنفسه: ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾: أي وما صح لنبي أن يخون في الغنيمة، فإن النبوة تنافي الخيانة[1]، وشأنه ﷺ أعلى من ذلك وأعز، ثم بيّن سبحانه عقوبة من يأخذ شيئاً من الغنيمة لنفسه بدون حق، ومن يأخذ شيئاً من الأموال العامة لنفسه بدون حق أيضاً، فقال: ﴿ ومن يَغْلُلْ يأت بما غل يوم القيامة ﴾: أي يحشر يوم القيامة وهو يحمل الشيء الذي غله لنفسه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول، فعظمه وعظم أمره، ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك،

(١) انظر البيضاوي والنسفي ١/٦١٥.

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت ـ ذهب أو فضة ـ فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك»(١).

فالمسؤولية عن الأموال العامة كبيرة، وشأنها عند الله خطير، وعلى من اؤتمن عليها أن يكون وقافاً فيها عند الحدود المشروعة، لا يتصرف فيها إلا بما يرضي الله تعالى، وإلا حشر يوم القيامة وهو يحمل ما أخذ لنفسه، وما استأثر به دون غيره من الناس، ثم يكون بعد ذلك الحساب، فيخاصمه كل من كان له حق في المال الذي أخذه لنفسه ﴿ ثم تُوَفّى كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ [١٦١]. فحقوق العباد لا يضيع منها شيء عند الله تعالى، وهو أحكم الحاكمين.

ولا يستوي عند الله الأمين والخائن ﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ بطاعته فحفظ ما اؤتُمن عليه، وأدى الحقوق إلى أصحابه، ﴿كمن باءَ بسخطٍ من الله﴾: أي أتى يوم القيامة وهو يحمل آثار خيانته التي تعرضه لغضب الله تعالى، ﴿ ومأواه جهنمُ وبئس المصير ﴾ [١٦٢]: أي ثم مأواه بعد فضيحته في أرض المحشر جهنم، وبئس المصير.

﴿ هم درجات عند الله ﴾: أي يكون الناس يوم القيامة متفاوتين في المراتب والمنازل، لتفاوتهم في الطاعات وحفظ الأمانات ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ [١٦٣] فيجازي كل عامل بعمله.

المنة الكبرى

وبعد هذه الشهادة الربانية ببراءة النبي ﷺ عن كل ما يمكن أن يقع في الأوهام والظنون، بيّن الله تعالى حقيقة المقام الرفيع العالي الذي أكرمه الله تعالى به بالنسبة لعباده المؤمنين فقال عز وجل:

---

(١) أخرجه الشيخان.

﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ فالرسول ﷺ منة الله الكبرى على المؤمنين، بعثه الله تعالى لهدايتهم إلى الإسلام، وتعليمهم الحلال والحرام، وتطهير قلوبهم ونفوسهم من الآثام.

أدبه الله تعالى وكمله وجمله، ليكون القدوة الطيبة الحسنة لهم، في أقواله وأفعاله وأخلاقه وصفاته، واختاره تعالى من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته ومجالسته، والانتفاع به عليه الصلاة والسلام، كما قال جل جلاله: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾[1].

وخص سبحانه المؤمنين بالذكر، مع أنه عليه الصلاة والسلام رحمة لكل العالمين، لأنهم الذين انتفعوا به عليه الصلاة والسلام بالإيمان به، واتباع سنته، فالمنة عليهم أعظم، والنعمة في حقهم أتم وأكمل.

﴿ يتلو عليهم آياته ﴾: أي آيات القرآن الكريم ﴿ ويزكيهم ﴾ ويطهرهم من دنس الكفر والفساد وسوء الأخلاق ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾: أي القرآن والسنة ﴿ وإن كانوا من قبلُ ﴾ أي: من قبلِ بعثته عليه الصلاة والسلام ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ [١٦٤] ظاهر لا شك فيه.

هذا البيان الإلَهي لما ترتب على بعثته عليه الصلاة والسلام من خير كبير للمؤمنين، يجعلهم يزدادون محبة للنبي ﷺ، وتعلقاً به، واتباعاً لسنته عليه الصلاة والسلام.

مواجهة صريحة

وأخيراً توجهت الآيات الكريمة تخاطب الصحابة رضي الله عنهم بهذه المصارحة والمكاشفة، حول السبب المباشر لمصابهم في أحد، بقوله الكريم:

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة ﴾ في أحد ﴿ قد أَصَبْتُم مِثْلَيْها ﴾ في بدر، عندما قتلتم من المشركين سبعين، وأسرتم سبعين ﴿ قلتم أنى هذا ﴾: أي تساءلتم من

---

(١) التوبة: الآية ١٢٨.

أين هذا المصاب ونحن مسلمون، وفينا رسول الله ﷺ، وقد وعدنا سبحانه بالنصر؟ ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ بسبب مخالفتكم أمر الرسول ﷺ ومعصيتكم له ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ [١٦٥] يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، فمصابكم، وإن كان من الله تعالى وبمشيئته وقدرته، إلا أن سببه من أنفسكم وعصيانكم، كقوله تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾[١].

فلا يكون شيء إلا بإذنه تعالى ومشيئته ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ فلا تأثير للأسباب في الإيجاد والإعدام، إنما المؤثر في الحقيقة، هو الله تعالى وحده، وله سبحانه حِكَم كثيرة فيما قدَّر عليكم في أحد، منها ﴿ وليعلمَ المؤمنـين ﴾ [١٦٦] ﴿ وليعلمَ الذين نافقوا ﴾: أي ليميز سبحانه بين المؤمنين والمنافقين ﴿ وقيل لهم تعالَوْا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ﴾: أي ادفعوا الكفار بتكثير جيش المسلمين ﴿ قالوا لو نعلمُ قتالاً لاتبعناكم ﴾ وهو ما حدث قبل القتال، فعندما رجع عبد الله بن أُبيّ ابن سلول زعيم المنافقين، بثلث الجيش إلى المدينة المنورة، وخذل النبي ﷺ والمسلمين، كلمهم عبد الله بن عمرو بن حرام، وقال لهم: يا قوم أذكّركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أن يكون قتال[٢]، ﴿ هم للكفر يومئذ أقربُ منهم للإيمان ﴾ بسبب خذلانهم النبي ﷺ والمؤمنين، أو هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان[٣].

﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾: أي يظهرون خلاف ما يبطنون، ﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ [١٦٧] من كفر ونفاق.

ويؤكد كفرهم أنهم ما كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر، وما كانوا يردون ما حدث في أحد إلى علمه ومشيئته سبحانه وتقديره، بل كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿ الذين قالوا لإخوانهم ﴾: أي عن إخوانهم في النسب الذين استشهدوا في

---

(١) الشورى: الآية ٣٠.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٣٥.
(٣) تفسير البيضاوي ١/٦٢١.

أحد ﴿وقعدوا﴾ وهم قاعدون عن القتال ﴿لو أطاعونا ما قُتلوا﴾: أي لو أطاعونا، فتركوا القتال، وقعدوا عنه مثلنا، ما قُتلوا، ﴿قل فادْرءوا عن أنفسِكم الموتَ إن كنتم صادقين﴾ [١٦٨]: أي ادفعوا عن أنفسكم الموت عندما يحضركم في أجلكم المقدر لكم، إن كنتم صادقين. أنّ القعود سبب للنجاة من الموت. وسبق ومر معنا مثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾.

حقيقة القتل في سبيل الله

تميزت سورة آل عمران بتصحيح كثير من التصورات المنحرفة والمفاهيم الخاطئة، فالقتْلُ في تصور الناس موْت، ولكنه إذا كان في سبيل الله تعالى حياةٌ وكرامة، جاء هذا التصحيح لحقيقة القتل في سبيل الله في سياق تكريم الله تعالى لشهداء أحد، وتأسيةً لأهلهم وإخوانهم الذين أُصيبوا بقتْلهم، ورداً على المنافقين الذين قالوا: ﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ قال تعالى: ﴿ ولا تَحسَبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً ﴾ فلا يُعد القتْل في سبيل الله موْتاً، جاء هذا التقرير بأسلوب النهي عن تصور القتْل في سبيل الله موتاً، ووُجّه الخطاب إلى النبي ﷺ مواساة له عليه الصلاة والسلام وتسلية له عن مصابه بأصحابه في أحد، فكأنه وحده المصاب، وهذا يدل على شدة حزنه عليه الصلاة والسلام على من قُتل من أصحابه في أحد، وخاصة عمه حمزة رضي الله عنه سيد الشهداء. حتى إنه عليه الصلاة والسلام أذن للنساء أن يبكين على شهداء أحد، فلم ينكر عليهن عندما سمع بكاءهن، ولكنه تأثر عليه الصلاة والسلام عندما لم يسمع باكية تبكي على عمه حمزة رضي الله عنه، فعن ابن عمر وأنس رضي الله عنهما قالا: لما رجع رسول الله ﷺ من أحد، سمع نساء الأنصار يبكين، فقال: «لكن حمزة لا بواكي له» فبلغ ذلك نساءَ الأنصار، فبكين حمزة فقام رسول الله ﷺ ثم استيقظ، وهن يبكين، فقال: «يا ويحهن ما زلْن يبكين منذ اليوم، فليبكين، ولا يبكين على هالك بعد اليوم»[١].

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده بسندين، رجال أحدهما رجال الصحيح.

وتحدثت الآيات عن حياة الشهداء مرة ثانية في قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾[1]، فللشهداء حياة برزخية خاصة بهم ﴿بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾ [١٦٩].

ولما سئل النبي ﷺ عن هذه الآية قال: «أرواحهم في جوْف طيْر خُضْر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا»[2].

فرحة الشهداء واستبشارهم

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ من أنواع النعيم والتكريم ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي: يفرحون ويسرون بإخوانهم الذين تركوهم في الدنيا وهم يجاهدون، لأنهم إذا استشهدوا لحقوا بهم ونالوا من الكرامة مثل ما نالوا، فهم بذلك يستبشرون.

وقيل: إن الشهداء سألوا الله عز وجل أن يخبر إخوانهم بما نالوا من الخير والكرامة، ليرغبوا في الجهاد، فأخبرهم الله عز وجل بما أنزل على النبي ﷺ، ففرحوا بذلك واستبشروا[3].

ففرح الشهداء واستبشارهم باستمرار المسلمين على طريق الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى واللحاق بهم في الجنة، وهم يتمنون العودة إلى الحياة الدنيا ليجاهدوا ويقتلوا كما مر معنا في الحديث، وجاء أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما

---

(١) البقرة: الآية ١٥٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

(٣) انظر تفسير الخازن ١/٦٢٦.

على الأرض، إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»(١).

﴿ ألّا خوف عليهم ﴾ بعد القتل والاستشهاد ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ [١٧٠] على ما فاتهم من الدنيا، فما عند الله خير وأبقى.

وكما يستبشر الشهداء بإخوانهم المجاهدين، يستبشرون أيضاً لأنفسهم بما أنعم الله عليهم ﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ [١٧١] سواء كانوا من الشهداء أم من غيرهم.

فالله سبحانه لا يضيع أجر المجاهدين الذين لم يستشهدوا، قال ﷺ: «تضمن الله تعالى لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهادٌ في سبيلي، وإيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي، فهو عليَّ ضامنٌ أن أدخلَه الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجرٍ أو غنيمة»(٢).

الجهاد بعد غزوة أحد

وبفضل هذا التوجيه الرباني الكريم، والأسوة الصالحة بالنبي القائد العظيم، استمر الصحابة رضي الله عنهم على طريق الجهاد، فلم يهنوا، ولم يفتروا، رغم ما أصابهم في أحد، وشهد الله تعالى بفضل جهادهم، واستجابتهم لدعوة النبي ﷺ عندما دعاهم إلى الجهاد، بقوله الكريم: ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْحُ ﴾: أي ما أصابهم في أحد من قتْل وجراح وآلام، ﴿ للذين أحسنوا منهم واتَّقَوْا أجرٌ عظيم ﴾ [١٧٢] وهو ثناء كريم على الصحابة رضي الله عنهم، الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من أحد في أثر المشركين، رغم ما أصابهم من جراح وآلام، وقد أراد ﷺ بهذا أن يرعب المشركين، ويريهم أن المسلمين لا زالوا بخير وقوة، ولم يأذن ﷺ لأحد أن يخرج معه سوى من حضر

---

(١) البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٢) انظر الحديث كاملاً في الصحيحين وسنن النسائي.

وقعة بدر، إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، الذي استشهد أبوه في أحد، أذن له لقوله رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة، لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن.

قال ابن هشام بعد أن ذكر خبر جابر: وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم. وروى ابن إسحاق. . . أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان شهد أحداً مع رسول الله ﷺ قال: شهدت أحداً مع رسول الله ﷺ، أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي، أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحاً، فكان إذا غُلب حملته عُقبة، ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[1].

وبلغوا حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة المنورة، وكان المشركون قد أجمعوا الرجعة ليهجموا على المدينة ويستأصلوا المسلمين، فلما علموا بخروج النبي ﷺ مع أصحابه، ألقى الله الرعب في قلوبهم ـ كما مر معنا ـ فانصرفوا عما أجمعوا إليه، وعادوا إلى مكة المكرمة.

بـــدر الثـانيـــة

عندما وقف أبو سفيان بعد معركة أحد على الجبل يصيح: اعل هبل، قال للنبي ﷺ وأصحابه: موعدكم موسم بدر القابل. ولبدر موسم سنوي يجتمع الناس فيه للبيع والشراء، فلما اقترب الموعد خرج أبو سفيان مع المشركين من قريش، فألقى الله الرعب في قلوبهم فرجعوا، واستأجر أبو سفيان بعض التجار المسافرين إلى

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣/٤٤.

المدينة ليثبطوا المسلمين عن الخروج، ويشيعوا بينهم أن قريشاً خرجت بجمع كبير لا طاقة للمسلمين به، ولم تؤثر هذه الشائعات على معنويات المسلمين، بل زادتهم إيماناً بالله تعالى وثقة بتأييده ونصره، فخرجوا مع النبي ﷺ متوكلين على الله تعالى وحده، وأنزل سبحانه مثنياً عليهم قوله الكريم: ﴿ الـذين قال لهم النـاس ﴾ المستأجَرين من قبل أبي سفيان ﴿ إن الناس ﴾: أي قريش ﴿ قد جمعوا لكم فاخْشَوْهم ﴾ فلم يلتفتوا إلى هذه الأقوال، ولم يتأثروا بها ﴿ فزادهم إيماناً ﴾ بالله تعالى، ويقيناً بنصره وتأييده، ﴿ وقالوا حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل ﴾ [١٧٣]: أي الله هو الذي يكفينا أمرهم، ونعم الكافي هو جل جلاله، وهي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار، عن ابن عباس: ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ وأصحابه حين قال لهم الناس: ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم ﴾(١).

وهذا يدلنا على أن الصحابة رضي الله عنهم استفادوا من دروس أحد، وعرفوا أن النصر من الله تعالى بطاعته وتقـواه، وأن الخذلان من المعـاصي والمخالفة.

وكانت نتيجة خروجهم متوكلين على الله تعالى مستجيبين لأمر النبي ﷺ، أنهم حضروا موسم بدر، بينما تخلف أبو سفيان والمشركون، وتناقل الناس ذلك فازداد احترامهم وتقديرهم للنبي ﷺ وأصحابه، وانفردوا في سوق بدر، فباعوا واشتروا وربحوا، ثم رجعوا إلى المدينة المنورة بالسمعة الطيبة والربح الوفير، ونالوا فوق ذلك رضوان الله تعالى وثناءه الخالد عليهم بقوله الكريم: ﴿ فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾: أي لم يصبهم أي مكروه يسوءهم ﴿ واتبعوا رضوان الله ﴾ بطاعته سبحانه، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ والله ذو فضل عظيم ﴾ [١٧٤] بما أعطاهم وأنعم عليهم.

ثم بيّن سبحانه مصدر هذه الشائعات وحقيقتها، فقال: ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾: أي إن ذلكم المخوف والمثبط عن الخروج هو الشيطان، يخوف

(١) رواه البخاري في صحيحه.

بوسوسته أولياءه الذين يوالونه ويتأثرون بوسوسته ﴿ فلا تخافوهم ﴾: أي لا تخافوا من أولياء الشيطان، ولا تقعدوا عن قتالهم، كما قال في موضع آخر: ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾[1].

﴿ وخافونِ إن كنتم مؤمنين ﴾ [١٧٥]: أي إن كنتم مؤمنين حقاً بالله تعالى، فينبغي أن تخافوا منه سبحانه، بطاعته واتباع سنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

ملاحظـــة هامـــة

إن المتدبر للآيات الكريمة السابقة التي أُنزلت في غزوة أحد يلاحظ أنها اشتملت على كثير من العتاب والمواساة، وأن الآيات التي يغلب عليها العتاب خاطبت الصحابة رضي الله عنهم، بينما الآيات التي يغلب عليها معنى المواساة خاطبت النبي ﷺ.

وهذا يدل دلالة قاطعة أن الله تعالى لا يحمل النبي ﷺ أي تبعة عما حدث في أحد، فلا مسؤولية على النبي ﷺ عما أصاب المسلمين في أحد، ولم تُدخله الآيات حتى في إطار المسؤولية الجماعية، كما أدخلت عامة الصحابة فيها ـ كما مرّ معنا ـ.

وما فعله ﷺ قبل خروجه إلى أحد من مشاورته لأصحابه، ثم قراره بالخروج إلى أحد، وتنظيم أصحابه قبل المعركة حسب طبيعة أرضها، وما أوصاهم به من الثبات والطاعة، وشجاعته عليه الصلاة والسلام وثباته في موقعه أثناء اشتداد القتال، وفرار أكثر أصحابه عنه، ثم ما فعله بعد المعركة من الخروج في أثر المشركين، هو ما ينبغي أن يفعله أمهر القواد العسكريين، وأكثرهم إخلاصاً وشجاعةً، ودرايةً وخبرةً بشؤون القتال، وقيادة الرجال.

والعجب كل العجب من الذي لا يدرك هذه الحقيقة، رغم تدبره للآيات الكريمة وما كتبه في ظلالها، حتى قال: لقد كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن

(١) النساء: الآية ٧٦.

يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرية التي تعرضت لها، وهي بعد ناشئة، ومحاطة بالأعداء من كل جانب، والعدو رابض في داخل أسوارها ذاتها، نقول كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها، لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة، مستنداً إلى رؤياه الصادقة، وفيها ما يشير إلى أن المدينة درع حصينة، ولم يستشر أصحابه[1]. . .

كان على الكاتب ـ وهو سيد قطب ـ غفر الله له، أن يتذكر حقيقة هامة، وهو انتصاره ﷺ على المشركين في أول المعركة، وقد سجل الله تعالى هذا النصر وخلّده بقوله الكريم: ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسُّونهم بإذنه ﴾ الآية ـ كما مر معنا ـ فخروجه ﷺ كان فيه خير ونصر، ولم يكن سبب المصاب الذي حدث بعد ذلك، والذي حدث بسبب الخلاف والمعصية، كما ذكره الله سبحانه وأكده في عدة مواضع من الآيات الكريمة التي نزلت بسبب غزوة أحد.

والرؤيا التي أشار إليها سيد قطب رحمه الله ذكرها بعض كتاب السير والمفسرين كأنها كانت قبل خروجه عليه الصلاة والسلام إلى أحد، وأما المحدثون، فقد روَوْها بألفاظ تدل على أنها حدثت بعد غزوة أحد، وهي في الصحيحين البخاري ومسلم باللفظ الآتي:

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهَلي إلى أنها اليمامة أو هجَر، فإذا هي المدينةُ يثرب، ورأيت في رؤياي هذه أني هززتُ سيفاً فانقطع صدرُه، فإذا هو ما أُصيب به المؤمنون يوم أحد، ثم هززتُه أخرى فعاد أحسن مما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها أيضاً بقراً، واللهِ خيرٌ، فإذا هم النفرُ من المؤمنين يوم أحد وإذا الخير ما جاء الله تعالى به من الخير وثواب الصدق الذي أتانا الله بعدُ يومَ بدر»[2].

---

(١) انظر في ظلال القرآن ١/٥٣٢.

(٢) ورواه ابن ماجه في سننه بهذا اللفظ أيضاً، وفي مسند أحمد من حديث أنس: «رأيت فيما يرى النائم كأني مردف كبشاً، وكأن ظبة سيفي انكسرت، فأولت أني أقتل صاحب الكتيبة، وأن رجلاً من أهل بيتي يقتل» وفي سنده علي بن زيد، وهو ثقة سيء الحفظ، وليس فيه ذكر للدرع الحصينة.

وليس في رواية الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام أدخل يده في درع حصينة، وأنه أولها المدينة المنورة. وينبغي التعويل على رواية الصحيحين لأن رؤيا الأنبياء حق ووحي، ولا يعقل أن يوحي الله تعالى إلى النبي ﷺ بواسطة الرؤيا، بالبقاء في المدينة المنورة، والتحصن فيها، ثم يخالف النبي ﷺ ما أوحى الله إليه بالرؤيا ويخرج إلى أحد.

المسارعون في الكفر

ونعود بعد هذه الملاحظة الهامة إلى سياق الآيات الكريمة التي توجهت بالخطاب إلى النبي ﷺ تواسيه وتخفف من همه وحزنه، بسبب ما أظهره المنافقون واليهود، من شماتة بالنبي ﷺ والمسلمين بعد مصابهم في أحد، ﴿ولا يَحْزُنْكَ الذين يسارعون في الكفر﴾: أي لا يحزنك الذين يقعون في الكفر سريعاً، وهم المنافقون واليهود ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ بمسارعتهم إلى الكفر، لأن الله غني عنهم وعن إيمانهم وطاعتهم، ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾: أي نصيباً في ثواب الآخرة ونعيم الجنة، ولذلك خذلهم، ولم يوفقهم للإيمان ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ [١٧٦].

ثم بيّن سبحانه سبب خذلانه لهم وعدم هدايتهم، فقال: ﴿إن الذين اشْتَرَوْا الكفر بالإيمان﴾: أي استبدلوا الكفر بالإيمان، وآثروا الكفر على الإيمان بسوء اختيارهم وكسبهم ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾ إنما يضرون أنفسهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾ [١٧٧] لأنه عذاب عظيم، فلا بد أن يكون أليماً. وإمهال الله تعالى لهم، وتأخيره العذاب عنهم، مكر بهم، واستدراج لهم، ﴿ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ بسبب إصرارهم على كفرهم ومعاصيهم ﴿ولهم عذاب مهين﴾ [١٧٨] فيه ذلة ومهانة.

التمييز بين الخبيث والطيب

ثم بعد هذا التهديد الشديد بالعذاب العظيم والأليم والمهين، توجهت الآيات بالخطاب المباشر للكفار من المنافقين واليهود، تبين لهم الحكمة من مصاب

المسلمين في أحد، ثم تدعوهم إلى الإسلام، وترغبهم فيه، بقوله تعالى: ﴿ ما كان الله ليذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميزَ الخبيثَ من الطيب ﴾ فلا يترككم الله مختلطين بالمؤمنين، لا يعرف الصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، لا بد أن يميز الله بينهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالامتحان والاختبار، أو بأن يطلعكم الله تعالى على ما ستر عنكم من الغيب، ولا سبيل لكم إلى هذا ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ لأنه سبحانه استأثر بعلم الغيب، فلا يطلع عليه إلا من شاء من رسله، ولهذا قال جل شأنه: ﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾: أي يختار سبحانه من رسله من يشاء، فيطلعه من الغيب على ما يشاء، كما في قوله تعالى: ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَداً ﴾(١).

وقد أطلع الله تعالى النبي ﷺ على المنافقين، فكان عليه السلام يعرفهم بأسمائهم، لكنه عليه الصلاة والسلام كان يعاملهم بحسب ظاهرهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى.

ثم دعتهم الآية إلى الإيمان، والدخول في زمرة المؤمنين: ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ فالإيمان يقتضي التصديق بجميع الرسل دون تفريق بينهم، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿ قل آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾.

ثم رغبتهم بالثواب الجزيل والأجر الكبير إن آمنوا ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ [١٧٩] في مقابل العذاب العظيم والأليم والمهين.

---

(١) الجن: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

الفصل الخامس

مع أهل الكتاب مرة ثانية

تمهيد

وبعد هذه الوقفة الطويلة المتأنية لآيات سورة آل عمران عند غزوة أحد، وبيان ما فيها من عبر بليغة، وعظات نافعة، ودروس مستفادة، عادت الآيات إلى موضوعها الأساسي الأول، وهو المواجهة مع أهل الكتاب، ودعوتهم إلى دين الإسلام القائم على التوحيد، والاستسلام الكامل لله تعالى الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد، وهو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وبيان الانحراف الذي أدخلوه على عقائدهم، والتغيير والتبديل الذي أحدثوه في التوراة والإنجيل، وتصديق القرآن الكريم لنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما السلام، وما فيهما من صفات النبي ﷺ والبشارة به.

وغلب على الآيات أسلوب التهديد والوعيد، بعد أن استعملت أساليب المجادلة والمناظرة، بسبب أن السورة أوشكت على النهاية، فلا بد من اتباع أسلوب الحسم والجزم.

طوق من نار

سبق معنا أن سورة آل عمران تميزت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة والمفاهيم المنحرفة، وفي الآية التالية تصحيح لتصور خاطىء لأحبار أهل الكتاب ورهبانهم، قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم﴾ وهم الأحبار والرهبان الذين بخلوا بما علموا من صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، فكتموها عن الناس، قال ابن عباس: إنما نزلت في أهل الكتاب

وبخلهم ببيان ما علموه من أمر محمد ﷺ، وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل العلم[1].

﴿ بل هو شرٌّ لهم ﴾ لأنه تعالى سيعاقبهم على ذَلك أعظم عقاب، بينه بقوله: ﴿ سيُطَوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾: أي سيحملون عقاب ما بخلوا به، فهو من الطاقة، كما قال تعالى: ﴿ وعلى الذين يطيقونه ﴾ الآية[2] وليس من التطويق، أو من الإلزام، أي سيلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ الآية[3]، وقال إبراهيم النخعي: معنى (سيطوقون) سيجعل لهم يوم القيامة طوق من النار[4].

والبخل في اللغة: أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه، وقد كتم أهل الكتاب صفات النبي ﷺ ونعوته المذكورة في التوراة والإنجيل، وبيانها واجب عليهم، أوجبه الله عليهم عندما أخذ عليهم العهد والميثاق، الذي مر معنا في قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصرنه ﴾ الآية. وهو ميثاق أخذه الله على أنبيائهم، وسيأتي معنا أنه سبحانه أخذه على عامة أهل الكتاب في قوله: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ الآية.

ويحتمل لفظ الآية معنى آخر، وهو البخل بالمال، وتكون الآية بهذا المعنى في مانعي الزكاة، وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين، واستدلوا له بقول النبي ﷺ:

«من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته، مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع[5] له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك، أنا

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٢٩١.
(٢) البقرة: الآية ١٨٤.
(٣) الإسراء: الآية ١٣.
(٤) تفسير القرطبي ٤/٢٩٢.
(٥) أي ثعباناً لا شعر له.

كنزك، ثم تلا هذه الآية: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون . . ﴾ الآية»[1].

ولكن المعنى الأول يتفق مع سياق الآية وسباقها أكثر من هذا المعنى، ولا مانع من القول: إن معنى الآية ينسحب أيضاً على مانعي الزكاة، كما ورد في الحديث الشريف، وهو في الأصل في علماء أهل الكتاب الذين كتموا صفات النبي ﷺ التي كانت في التوراة والإنجيل وقد مر معنا في الحديث الشريف أيضاً أن كاتم العلم عمن يحتاج إليه يلجم يوم القيامة بلجام من نار.

﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾: أي لله سبحانه كل ما في السماوات والأرض مما يتوارثه الناس، سواء كان علماً أو مالاً أو غيرهما، ﴿والله بما يعملون خبير﴾ [١٨٠].

جرأتهم على الله تعالى

ولم يكتفوا بجريمة البخل وكتم شهادة الحق التي ائتمنوا عليها، بل تجرأوا على الله تعالى، فوصفوه بصفات لا تليق بكماله وجلاله وغناه سبحانه، منها ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ قال ذلك بعض اليهود عندما سمعوا قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾[2]، فقالوا للنبي ﷺ: يا محمد، افتقر ربك فسأل عباده القرض، وقالوا أيضاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، عندما دخل بيت المدراس، وهو المكان المخصص لتعليم علوم دينهم، فوجد فيه رجلاً من أحبارهم، يقال له: فنحاص، فقال له: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما

---

(١) البخاري في صحيحه.

(٢) البقرة: الآية ٢٤٥.

يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا.

فغضب أبو بكر رضي الله عنه، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟» فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه. فجحد فنحاص ذلك، فأنزل الله: ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا... ﴾ الآية[1].

﴿ سنكتب ما قالوا وقتْلَهم الأنبياءَ بغير حقّ ﴾ فكما تجرأوا على الله تعالى فوصفوه بصفات لا تليق بكماله وغناه، تجرأوا من قبل على أنبيائه فقتلوهم، ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ [١٨١] جزاءً على هذه الجرائم الكبيرة التي صدرت عنكم ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ [١٨٢].

دعــوى كــاذبــة

وتابعت الآيات بكشف جرائمهم وفضْح أكاذيبهم، مع التهديد والوعيد عليها: ﴿ الذين قالوا ﴾ وهم اليهود ﴿ إن الله عهد إلينا ﴾: أي أوصانا ﴿ أن لا نؤمنَ لرسولٍ حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النار ﴾: أي حتى يقرب قرباناً، فتنزل نارٌ من السماء فتأكله، وهو كذب وافتراء على الله تعالى، فالمعجزات التي أيد الله تعالى بها الأنبياء لم تكن متشابهة، فالعصا واليد البيضاء من معجزات موسى عليه السلام، والناقة معجزة صالح، وإحياء الموتى وإبراء المرضى من معجزات عيسى عليه السلام... الخ، ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ قل قد جاءكم رسلٌ من قبلي بالبينات ﴾: أي المعجزات المختلفة الدالة على صدقهم ﴿ وبالذي قلتم ﴾:

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٤٢.

أي وجاء بعضهم بالقربان الذي تأكله النار كما ذكرتم ﴿ فلم قتلتموهم ﴾ ولم تؤمنوا بدعوتهم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ [١٨٣] في دعواكم.

وبادرت الآيات بعد كشف هذه القبائح والأكاذيب إلى مواساة النبي ﷺ، بقوله تعالى: ﴿ فإن كذبوك فقد كُـذِّب رسلٌ من قبلك جاءوا بالبينات ﴾: أي بالحجج والبراهين القاطعة الدالة على صدقهم، ﴿ والزُبُر ﴾ والمواعظ والزواجر، أصلها من الزبْر، وهو الزجر، ﴿ والكتاب المنير ﴾ [١٨٤] الذي يبين الحق، ويرشد إلى الصراط المستقيم.

الـواعظ الصامـت

ثم هددهم الله تعالى وتوعدهم بالموت وما بعده من حساب وعقاب، وهو واعظ صامت، ومع صمته فهو أبلغ واعظ. ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾، والله سبحانه هو وحده الحي الذي لا يموت، كما سبق بيانه في أول السورة، وكما في قوله تعالى: ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[١]، وقوله أيضاً: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾[٢].

فالموت أمر محتم لازم لكل الأحياء، قهر الله جل جلاله به القيـاصرة والأكاسرة، وأذل به أعناق الجبابرة، فانتقلوا به من سعة القصور إلى ضيق القبور.

والذوق: إدراك الطعم ومعرفته، وما عرف طعم الموت إلا الأموات، ولو قدرالله لبعضهم أن يعودوا، ويتحدثوا عن طعم الموت لمات الأحياء خوفاً وغماً وهماً. أسأله سبحانـه أن يرحمنا ويخفف عنا سكـرات الموت، ويثبتنـا على الإيمان[٣].

﴿ وإنما تُوَفَّوْن أجوركم يوم القيامة ﴾: أي تعطون جزاء أعمالكم تاماً وافياً يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء.

---

(١) الرحمن: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) القصص: الآية ٨٨.

(٣) انظر حياتنا والموعد المجهول.

﴿ فمن زُحْزِحَ عن النار ﴾: أي أبعد عن النار، وكلمة (زُحْزِح) تدل على صعوبة النجاة من النار، إذ حفت بالشهوات التي تجذب الناس إليها وتقربهم منها ﴿ وأُدخِل الجنة ﴾ بفضل الله تعالى ورحمته ـ كما مر معنا ـ ﴿ فقد فاز ﴾ الفوز الحقيقي الذي لا يعادله فوز آخر، ونجا النجاة التي لا خطر بعدها ﴿ وما الحياةُ الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ [١٨٥] فالتمتع بالدنيا قليل وحقير، والغرور بها، وهو الاغترار والانخداع، كثير.

مـآسٍ ونكبـات

ولا بد أن يصاب المسلمون في مواجهتهم الطويلة المستمرة مع أهل الكتاب ببعض الخسائر في أنفسهم وأموالهم، ولهذا توجهت الآيات تخاطب المسلمين بقوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ﴾: أي ستصابون ببلاء يقع على أموالكم بما تتعرض له من نهب وسلب، ويقع على أنفسكم بما يصيبكم من جراح وقتل. واللام في (لَتُبْلَوُنَّ) لام القسم، والنون الثقيلة لتأكيد مضمون القسم، الذي يأتي لتأكيد أمر في المستقبل، فالآية تتحدث عما يقع في مستقبل الأمة المسلمة، وجاء الحديث عنه بعد الحديث عن مصاب المسلمين في أحد، فكأن المصاب في أحد البداية لسلسلة طويلة متعاقبة من المآسي والمحن في الأموال والأنفس، تمتد امتداد تاريخ هذه الأمة، بسبب المواجهة والصراع القائم بينها وبين أهل الكتاب خاصة، والكفار عامة، دل عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿ ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ وما أكثر ما سمع المسلمون، ولا زالوا يسمعون من أذى يوجه إليهم من إذاعات اليهود والنصارى ووسائل إعلامهم، التي تبث سمومها في الليل والنهار بمختلف لغات العالم.

ونظرة إلى تاريخ المسلمين الطويل تدل على صدق قوله تعالى، فتاريخهم حافل بالمآسي والنكبات التي حلت بأموالهم وأنفسهم، وأكثرها فداحة كان بسبب المواجهة مع القوى الصليبية الحاقدة واليهودية الماكرة.

وقد يقول قائل: لقد نُكب المسلمون على أيدي المغول والتتار الذين اجتاحوا مشرق العالم الإسلامي أكثر مما نكبوا به عندما اجتاح الصليبيون مغرب العالم الإسلامي.

أقول: اجتياح المغول والتتار كان لفترات محدودة ثم توقف وانتهى، بينما الاجتياح الصليبي لا يزال مستمراً لم يتوقف بعد، وإن الدارس لأحداث التاريخ يجد أصابع الصليبية تقف وراء الاجتياح المغولي لمشرق العالم الإسلامي.

وبعد أن أخبر سبحانه المسلمين عما ينتظرهم من بلاء في أموالهم وأنفسهم، بيّن لهم سبحانه أسباب النجاة والسلامة المعنوية بقوله: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [١٨٦]: أي مما يجب العزم عليه من الأمور، وهذا حث لهم على الصبر والتقوى، وهو ما ركزت عليه آيات السورة في عدة مواضع، مر معنا بعضها في قوله تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ [١٢٠]، وقوله أيضاً: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ [١٢٥].

الميثاق العام

وكما أخذ الله الميثاق على النبيين أن يؤمنوا برسول الله ﷺ إنْ أدركوا زمانه، وأن ينصروه، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءَكم رسول مصدِّقٌ لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ الآية[١]، أخذ الله الميثاق على علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يبينوا أمر النبي ﷺ للناس كما ذكر في التوراة والإنجيل، فقال جل وعلا: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ وهذا يدل على أنه سبحانه علم أنهم سيكتمون أمره، وهو ما أخبر عنه بقوله: ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾: أي طرحوا الميثاق وراء ظهورهم، ولم يراعوه ويلتفتوا إليه أصلاً، فإن النبذ وراء الظهر

---

(١) آل عمران: الآية ٨١. أستميح القارىء عذراً لكثرة تذكيره بما سبق في الكتاب فما قصدت إلا إبراز الوحدة الموضوعية للسورة، وبيان الاتفاق والاحتباك بين آياتها التي بلغت المائتين.

تمثيل واستعارة لترك الاعتداد وعدم الالتفات، وعكسه جعل الشيء نصب العين ومقابلها[1].

﴿ واشتَروْا به ثمناً قليلاً ﴾: أي وأخذوا بدله من حطام الدنيا الفانية، ﴿ فبئس ما يشترون ﴾ [١٧٨] فبئس ما أخذوا من الدنيا.

قال ابن كثير رحمه الله: هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينوّهوا بذكره في الناس، فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك[2] من أجل المراتب الدينية التي كانت لهم، والتي استغلوها أقبح استغلال لجمع المال وكنزه، كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾[3].

وكانوا يتظاهرون أمام الناس بغير حقيقتهم، يظهرون أمامهم بمظهر الورع والتعفف والزهد، بينما الطمع والجشع يملآن قلوبهم ونفوسهم، وقد فضحهم الله تعالى لنبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بقوله: ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ﴾: أي يفرحون بكتمان ما في التوراة والإنجيل من صفات النبي ﷺ، وتحريف ما فيهما ﴿ ويحبون أن يُحْمَدوا بما لم يفعلوا ﴾: أي يحبون أن يثني الناس عليهم، ويصفونهم بصفات التقوى، والورع، والزهد، والتقديس، والتطهير، حتى إنهم ابتدعوا ألقاباً لأنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، وهم في حقيقتهم أبعد الناس عن هذه الأعمال والصفات التي يدعونها، وكم سمعنا ولا زلنا نسمع عن فضائح وقبائح لكثير منهم يندى لها الجبين.

﴿ فلا تحسبنهم بمفازةٍ من العذاب ﴾ فلا نجاة لهم من عذاب الله تعالى، وبعد نفي النجاة من العذاب أثبته لهم بقوله: ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ [١٨٨].

---

(١) انظر روح المعاني ٤/١٤٩.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٤٥.
(٣) التوبة: الآية ٣٤.

مناجاة ودعوات

وبعد أن طال السرى، وامتدت المواجهة، وتضاعفت الهموم، وازدادت الكروب، وأثخنت الأبدان بالجراح، وظمئت الأرواح إلى الراح، جاءها النداء من الله تعالى يدعوها إلى واحة فضله ورحمته، وظلال أمنه وأنسه، فقد آن للمتعبين المكدودين أن يستريحوا، وللمهمومين المكروبين أن ينفسوا عن قلوبهم، ويبثوا همومهم، ويخففوا أحزانهم، آن للمجروحين أن يضمدوا جراحهم، ويمسحوا دماءهم.

لقد عودنا الله تعالى في سورة آل عمران أن يأخذ بأيدينا كلما ألمت بنا الخطوب، وتكاثرت الهموم والكروب، إلى ساحة رحمته وفضله، وأن يوقفنا على أبواب جوده وكرمه، بآيات كريمة، يعلمنا بها كيف نناجيه وندعوه، نبثه همومنا، ونسأله سبحانه السلوى عن أحزاننا ومعاناتنا.

إن هذه الدعوات مفاتيح الفضل الإلّهي والجود الصمداني، تفضل الله تعالى بها على عباده المؤمنين في التنزيل الحكيم، ليستفتحوا بها أبواب فضله وجوده وإحسانه، ويستمطروا بها شآبيب رحمته، ويستنزلوا بها معونته ومدده ونصره، جل جلاله، وتقدست ذاته، وتسامت صفاته، ولا إلّه غيره.

وهيأت الآيات الكريمة النفوس والقلوب لمناجاة ربها، والوقوف في ساحة فضله ورحمته، بتذكيرها بأنه سبحانه المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء، فخزائن جوده وكرمه مليئة، لا ينقصها جوده وعطاؤه، وخزائنه سبحانه مقدوراته، وهو قادر على كل شيء، ﴿ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير﴾ [١٨٩]، فلا تستعظموا المسألة، اسألوه كل شيء، وأنتم موقنون بالإجابة، مصدقون بكمال قدرته وسعة رحمته.

تفكُّر وتذكُّر

وقبل التوجه إلى الله تعالى بالدعاء، أرشدتنا الآيات لنتفكر في بعض مخلوقاته، وننظر نظر التدبر والتأمل في بعض مقدوراته، لنزداد إيماناً به سبحانه

وتعظيماً ﴿ إن في خلقِ السمواتِ والأرض واختلافِ الليل والنهار ﴾ بتعاقبهما، وما يحدث فيهما من تبادل في الطول والقِصَر حسب الناموس الدقيق الذي أحكمته القدرة الإلّهية لهما ﴿ لآيات لأولـي الألباب ﴾ لدلائل واضحة، وبراهين قاطعة، على وجود الله تعالى وجوده، ووحدانيته وكماله وغناه، لأصحاب العقول المنتفعين بعقولهم، فالعقل هو لب الإنسان، وأفضل شيء في بنيته وتكوينه إن أحسن صاحبه الانتفاع به.

والإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، ومعرفة عظمته وقدرته بالتفكر في مخلوقاته، يدفع الإنسان إلى ذكره في كل أحواله ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾: أي يكثرون ذكر الله تعالى فلا يفترون ولا يغفلون، تتغير أحوالهم ويتقلبون في أعمالهم، وتبقى قلوبهم وسرائرهم عامرة بذكر ربهم، تتذوق بذكره رَوْح الإيمان وبرْد اليقين، ولذة الحضور، كما قال سبحانه: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1] وكيف لا تطمئن بذكره تعالى، وهو يذكرهم ﴿ فاذكروني أذكُرْكم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾[2] ولهذا كان ﷺ يذكر الله عز وجل في كل أحيانه، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها[3].

وينبغي أن يكون مع الذكر تفكر ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ يتفكرون في الخلق لا في الخالق، لأنه جل وعلا لا تحيط به الأفكار، ولا تدركه الأبصار، وأنى للمخلوق أن يحيط بالخالق جل جلاله؟!!.

تنزيه الخالق سبحانه

ويؤدي التفكر في المخلوقات إلى تعظيم خالقها، والاستسلام والانقياد لحكمه، والإقرار بحكمته جل وعلا في إيجادها وإبداعها ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ﴾ تتنزه عن العبث والباطل ﴿ وما خلقنا السماءَ والأرض وما بينهما

(١) الرعد: الآية ٢٨.
(٢) البقرة: الآية ١٥٢.
(٣) صحيح مسلم.

باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾[1]؛ أما المؤمنون فيقولون: ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [١٩١]، ينزهون الله تعالى ويسألونه الوقاية من عذاب النار. وفي اقتران الذكر بالتفكر إشارة إلى محدودية العقل الإنساني، وقصوره عن إدراك الحقائق كلها، فلا بد له من نور الذكر وهدايته.

﴿ ربنا إنك من تُدخِل النار فقد أخزيته ﴾: أي أذللته وأهنته وأهلكته، ﴿وما للظالمين من أنصار ﴾ [١٩٢] يمنعون عنهم الخزي والعذاب، فالتفكر يجعل الإنسان يؤمن بالحياة الثانية يوم القيامة، وأنه سبحانه ما خلق هذا الخلق وأبدعه هذا الإبداع للّعب والعبث والظلم، فلا بد إذن من حياة ثانية يظهر الله تعالى بها عدله وفضله وحكمته.

منـادي الإيمـان

ولا يصح الإيمان إلا بالتصديق برسالة النبي ﷺ واتباعه ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان ﴾ وهو خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فهو المنادي للإيمان الصحيح المقبول عند الله تعالى: ﴿ أن آمنوا بربكم ﴾ الذي هو خالقكم ومالككم ومدبر أمركم، فدعوته عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى لا إلى نفسه، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[2]، فدعوته إلى الله بأمر الله تعالى.

﴿فآمنّا﴾ فصدقنا بدعوته، واستجبنا لرسالته، ولا يخفى ما في الآية من تعريض بالمعرضين عن دعوة النبي ﷺ، وخاصة من أهل الكتاب الذين فرقوا بين الرسل فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعض.

ثم بعد أن أعلنوا استسلامهم الكامل لله تعالى وحده، واستجابتهم لدعوة

---

(١) صٓ: الآية ٢٧.

(٢) الأحزاب: الآيتان ٤٥ ـ ٤٦.

رسوله ﷺ، تقدموا إلى الله تعالى يسألونه قائلين: ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ التي أسلفناها ﴿ وكفر عنا سيئاتنا ﴾ بتوفيقنا إلى العبادات والطاعات المكفرة للسيئات، كالصلاة والصيام والحج والعمرة ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ [١٩٣]: أي ألحقنا بالصالحين الأخيار، فهي أمنية الأنبياء والصالحين، وقد جاء في دعاء يوسف عليه السلام: ﴿ رب قد آتيتني من الملك، وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾(١).

﴿ ربنا وآتنا ﴾ في الدنيا ﴿ ما وعدتنا على رسلك ﴾: أي على ألسنة رسلك من النصر والتأييد والعزة، ﴿ ولا تُخْزِنا يوم القيامة ﴾ بعذابك ﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ [١٩٤] الذي وعدتنا بإجابة دعائنا، عندما قلت: ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾(٢).

وهكذا علمنا الله تعالى بهذه الدعوات أن نسأله خير الدنيا والآخرة، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام في الليل لصلاة التهجد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ الآيات، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة(٣).

استجابة الدعاء

ثم أخبر سبحانه عن استجابته لهذه الدعوات بفضله ورحمته فقال: ﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾: أي فأجابهم ربهم، وأعطاهم ما سألوه، وأثابهم على عبادتهم، لأن الدعاء عبادة، ولا يضيع عند الله ثواب أي عبادة أو طاعة إذا كانت خالصة لله تعالى وحده ﴿ أنّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾: أي

---

(١) يوسف: الآية ١٠١.

(٢) غافر: الآية ٦٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه.

سواء كان الداعي ذكراً أو أنثى ﴿ بَعْضُكم من بعض ﴾ في الثواب والمسؤولية.

ثم ذكرت الآية بعض العبادات التي يتقرب بها إليه تعالى، واختارت ما يناسب موضوع السورة، والمواجهة بين المسلمين وأهل الكتاب ﴿ فالذين هاجروا ﴾ من أجل دينهم وعبادة ربهم ﴿ وأُخرجوا من ديارهم ﴾: أي أُجبروا على الخروج من ديارهم ظلماً وعدواناً من أجل دينهم وعقيدتهم، وهو من أشد أنواع الظلم التي يتعرض لها الإنسان، حتى جعلها الله تعالى سبباً لمشروعية الجهاد بقوله الكريم: ﴿ أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ الآية[1]. وهو ظاهرة فاشية في المجتمعات البشرية المعاصرة، فما أكثر المشردين عن بلادهم وأوطانهم ظلماً وعدواناً، من أجل أفكارهم ومعتقداتهم.

﴿ وأوذوا في سبيلي ﴾: أي تعرضوا للأذى بالضرب والسجن والتعذيب، وغير ذلك من ضروب الأذى المبتكرة مع مرور الأزمان من أجل إعانة الظالمين على ظلمهم وبغيهم ﴿ وقاتلوا ﴾ في سبيل الله، لدفع الظلم، ورد البغي، ﴿ وقُتلوا ﴾ في جهادهم، ولحقوا بقافلة الشهداء ﴿ لأكفرن عنهم سيئآتهم ﴾ بالتجاوز عنها وسترها وتطهيرهم منها، ثم بعدها يكرمهم الله بدخول الجنات ﴿ ولَأُدخِلنَّهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ وكل ذلك بفضله تعالى ورحمته ﴿ ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾ [١٩٥] فهو سبحانه المختص به، ولا يقدر عليه غيره.

المتاع القليل

إن مواجهة المسلمين لقوى الكفر والشرك مستمرة مع الزمان وتوالي الأيام والأعوام، والأيام دول، يوم لك ويوم عليك، يوم تُساء ويوم تُسر، وهو سبحانه الذي يعز ويذل، ويعطي ويمنع، كما هو الذي يقلب الليل والنهار، فلا ينبغي الاغترار بتغلب قوى الكفر وتمكنها في الأرض لبعض الفترات، بسبب ضعف المسلمين وبعدهم عن دينهم والاختلاف والتنازع القائم بينهم.

---

(١) الحج: الآيتان ٣٩ ـ ٤٠. انظر كتاب الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج.

لقد أنزل الله قوله الكريم: ﴿لا يَغُرَّنَّك تَقَلُّبُ الذين كفروا في البلاد﴾ [١٩٦]، على النبي ﷺ، والأمة المسلمة في بواكير ظهورها ونموّها، فكان سلطانها محدوداً في المدينة المنورة، وكانت قوى الشرك والكفر تتحكم في أرض العرب، ومن وراء أرض العرب كانت الدولتان الكافرتان الفارسية والرومية تتحكمان في معظم بلاد المعمورة، كما هو الحال في القوتين الكبيرتين للدولتين الكافرتين روسيا وأمريكا. ففي نزول هذه الآية تثبيت كبير للمسلمين، ورفع لمعنوياتهم، وكأني بها في هذا العصر تخاطب المسلم الذي بهرته قوة الدول الكافرة وشدة تسلطها على الدول الصغيرة الضعيفة، يسخرونها في مصالحهم ويزجون بها في صراعاتهم، وكلمة (تقلب الذين كفروا في البلاد) تدل على السعة والرخاء، وقوة التمكن الذي يجعلهم يترددون بحرية في طول البلاد وعرضها، كما هو الواقع المشاهد في عصرنا الحاضر.

فلا تغتر أيها المسلم بظاهر ما ترى فإنه ﴿متاع قليل﴾ لن يطول، وكل آت قريب، والأمر بيد الله تعالى الذي مر معنا قوله: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾.

ويقيني لو عاد المسلمون إلى دينهم، ووحدوا كلمتهم، ما تقلب الكفار في البلاد، وتحكموا في العباد.

﴿ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ [١٩٧]: أي بئس ما مهدوا لأنفسهم ببغيهم وظلمهم.

وبالمقابل: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله﴾ أكرمهم الله به، فأنزلهم في جنته ومستقر رحمته ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ [١٩٨]، لأنه لا ينقص ولا يزول ولا ينتهي، وهو خير مما يتقلب فيه الكفرة الفجار.

مضاعفة أجر مؤمني أهل الكتاب

وتعود الآيات إلى موضوعها الأساسي مع أهل الكتاب، لتبين ثواب الذين استجابوا منهم لدعوة رسول الله ﷺ فآمنوا وأسلموا، فلهم فضلهم في الإسلام، ومكانة بين المسلمين: ﴿ وإنَّ من أهل الكتاب ﴾: أي بعضهم ﴿ لمن يؤمن بالله ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد، وجاءت كلمة (يؤمن) لتدل على أن إيمان بعض أهل الكتاب مستمر ومتجدد في كل زمان ومكان.

فعلى المسلمين أن يتفهموا مراد الله تعالى في كلماته، ويبادروا إلى دعوتهم إلى دين التوحيد، دين الإسلام، الذي لا يقبل الله غيره، عليهم أن يزيحوا العوائق التي تعوق أهل الكتاب عن الإسلام، والتي خلفتها المواجهة الطويلة معهم، فثمة عوائق كثيرة من الافتراءات والأكاذيب التي اخترعها القسس والرهبان والحاخامات، والتي حاولوا فيها تشويه حقيقة الإسلام، ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ليصدوهم عن الإسلام، ويبعدوهم عنه، فإن استجابتهم للإسلام، ممكنة وقريبة إن أحسنّا دعوتهم وتعريفهم بحقيقة الإسلام.

﴿ وما أُنزل إليكم ﴾ في القرآن الكريم ﴿ وما أُنزل إليهم ﴾ في التوراة والإنجيل قبل التحريف والتبديل ﴿ خاشعين لله ﴾ خاضعين له سبحانه وحده، ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ كما فعل المجرمون من الأحبار والقسس والرهبان ﴿ أولئك ﴾ المؤمنون ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ وهـو أجر مضاعف، كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾(١).

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ [١٩٩] وسرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء ووصول الثواب.

---

(١) القصص: الآيتان ٥٢ ـ ٥٤.

الصبر والمصابرة والمرابطة

ثم جاءت الآية الأخيرة في سورة آل عمران على رأس المائتين، تأمر المسلمين بالتزام عدة النصر المعنوية التي سبق ذكرها في عدد من الآيات، نظراً للمواجهة المستمرة مع أهل الكتاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا ﴾ بالثبات على طريق الجهاد، والاعتصام بدين الله تعالى، فإنكم على الحق الواضح المبين، والأمر بالصبر لا يعني الاقتصار على معناه السلبي، وحبس النفس على المكروه فقط، بل الواجب مع الصبر المصابرة ﴿ وصابروا ﴾ وهي بذل المجهود لمجاوزة المكروه، والتغلب على الصعاب والعقبات، فالمصابرة عمل إيجابي يقتضي العمل وبذل الجهد للتغلب على الشدائد، وهو أمر مطلوب ولا يتعارض مع الصبر، فاحتمال المكروه شيء، والعمل على الخلاص منه بمعاناة أسباب النجاة والسلامة، شيء آخر، وكلاهما مطلوب ومشروع، والأمة المسلمة مكلفة بهما، ومر معنا ما فعل النبي ﷺ بعد مصابه في أحد.

﴿ ورابطوا ﴾ بمراقبة عدوكم ورصد حركاته ومخططاته التي يرسمها للعدوان عليكم، فلا تغفلوا عنه ولا تأمنوا جانبه، ولا تنشغلوا بمصالحكم الشخصية الدنيوية عن مراقبته ورصد حركاته وسكناته، فهو يتربص بكم الدوائر ولا يألو جهداً لينال منكم، وما حدث في أحد عبرة بليغة للمسلمين في كل عصر ومصر.

وأصل المرابطة المكث في الأماكن القريبة من العدو لمراقبته والمبادرة إلى التصدي له عند مهاجمته لبلاد المسلمين.

وهي نوع من أنواع الجهاد، وعبادة من أعظم العبادات وأكثرها ثواباً، قال رسول الله ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»(١)، وإذا مات المسلم وهو مرابط أجرى الله له ثواب المرابطة إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «كل ميت يختم له على عمله إلا المرابط في سبيل الله، يُجرى عليه عمله حتى يُبعث، ويأمن الفتان»(٢).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) رواه أحمد في المسند، والفتان: السؤال في القبر بعد دفنه.

وقال أيضاً: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأُجري عليه رزقه وأمن الفتان»[1].

ولهذا كان كثير من العلماء والصالحين يحرصون على الإقامة في المدن الواقعة على الحدود الفاصلة بين بلاد المسلمين وبلاد الكفار، لينالوا فضل وثواب المرابطة في سبيل الله.

والجدير بالذكر أن تطور أساليب الحرب وأنواع الأسلحة جعل بلاد المسلمين معرضة للخطر مهما كانت بعيدة عن بلاد الكفار، وأصبح كل مسلم في أي موقع من مواقع عمله في رباط، إن عزم عليه ونواه، وقصد بعمله وجه الله تعالى.

﴿ واتقوا الله ﴾ في جميع أموركم وأحوالكم وأعمالكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ [٢٠٠] في الدنيا والآخرة.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المفلحين، ويسددنا لما يحبه ويرضاه.

كان الفراغ من تسويد هذه الصفحات في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك للعام الثامن بعد الأربعمائة والألف من هجرة النبي ﷺ في بلد الله الحرام مكة المكرمة، حماها الله تعالى وصانها وبلاد المسلمين.

والحمد لله أولاً وآخراً

(١) رواه مسلم في صحيحه.

مراجع الكتاب

- **كتب السنة المعتمدة.**
- **من كتب التفسير:**
- روح المعاني للألوسي، دار الفكر.
- تفسير القرطبي، تصحيح أبي إسحاق أطفيش.
- تفسير أبي السعود، (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، دار إحياء التراث العربي.
- مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني.
- التفسير الحديث، لمحمد عزت دروزة، طبعة البابي الحلبي.
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق.
- تفسير البيضاوي، المطبوع مع مجموعة التفاسير، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- تفسير الخازن، المطبوع مع مجموعة التفاسير، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- تفسير النسفي، المطبوع مع مجموعة التفاسير، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- تفسير الفخر الرازي، الطبعة الأولى، دار الفكر.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ط ١.
- فتح القدير، للشوكاني، توزيع مكتبة المعارف بالرياض.
- الحلال والحرام في سورة المائدة، للمؤلف.
- المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء، للمؤلف.

- الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج، للمؤلف.
- الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر، للمؤلف.

كتب مختلفة:

- محمد في الكتاب المقدس، ديفيد بنجامين كلداني، ترجمة فهمي شحا.
- سيرة ابن هشام، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.
- حياتنا والموعد المجهول، للمؤلف.
- الكنز المرصود في قواعد التلمود، يوسف نصر الله، دار القلم.
- إظهار الحق، مقدمة أبي الحسن الندوي.
- المسيح إنسان أم إله، لمرجان.

فهرس الموضوعات